



حامد الناظر

الطاووس الأَسود

رواية

الوراق للنشر والتوزيع

الظاؤوش الأأسود

حامد الناظر

رواية

الرواق للنشر والتوزيع

الطَّائِرُوسُ الْأَسْوَدُ

حامد الناظر

■ طبعة الرواق الأولى يونيو 2021

الغلاف: كريم آدم

التصحيح اللغوي: إسلام منتصر

رقم الإيداع: 2021 / 14749

الترقيم الدولي: 7 - 116 - 824 - 977 - 978

جميع حقوق الطبع محفوظة

186 عمارات امتداد رمسيس 2 - أمام أرض المعارض - مدينة
نصر

هاتف: 0220812006

alrewaqpublishing

alrewaqpublishing

www.alrewaqpublishing.com



للنشر والتوزيع

الإهداء

إلى روح أبي، إدريس الناظر.

ذلك الذي غادرنا مساءً، فتأخر الصباح.

«إن الإنسان سيُعرّف لاحقًا، تعريفًا مطلقًا في النهاية، بأنه محض هيكل يقطنه سكانٌ متنوعون ومتنافرون ومستقلون»

روبرت ستيفنسون

المطار: ٠٦:٤٣ ص

بلغتُ من العمر ألف سنةٍ تقريبًا!

أظنني عشتُ طويلًا، أطول مما ينبغي بكثير وربما سأعيش أكثر، لكن ليس هذا هو المهم. هذه الرحلة الطويلة والشاقة لا تخصني وحدي، بل تشمل رهطًا عظيمًا تكوّن مع مرور الوقت. ما أقوله وما أفعله، يعبر عن خليطٍ من الرغبات والأمزجة والحالات. لا يكلفني الأمر سوى تبديل اللافتة المثبتة في أعلى الباب، وفي بعض الأحيان يكلفني أكثر من ذلك. إنه أشبه بمخاض، لكنه مخاضٌ مؤلم ينتهي بما يشبه الموت.

أجدني أحنّ إلى أشياء غريبة، وإلى أماكن لم أزرها قط، لكنني أعرفها. أراني أقوم مقام أناسٍ لا وجود لهم في الحقيقة لكنني أحسهم، وأذعن لرغباتهم. كأنني أقود مستعمرةً من الحيوانات والرغبات المتناقضة والمستقلة عن بعضها، أو ربما هي التي تقودني، لا أعرف.

ما أعرفه على وجه الدقة أنني أختزن قدرًا عظيمًا من الألم، وربما الحب، ومن المعارف والأحداث ما لم أعشه أو أسعَ إلى اكتسابه قط. أحسها تملأ روحي، تطاوعني أحيانًا وتتمرد

عليّ أغلب الأحيان، فأتمدد برغبتها- هنا وهناك، وأملأ فراغاتٍ كثيرة لا حاجة إلى ملئها.
عشتُ كل هذا العمر الطويل عدوًّا للفراغ، بيتًا تسكنه أرواحٌ كثيرة تائهة.

هذه الجثة السوداء الضخمة لا شأن لها، سوى أنها مستودعٌ عظيمٌ للأحزان والخيباتِ
والأمجاد. إنها محض جثة تعبر فوقها الأرواح، فمن يفكر في قتل جثة؟

سكنَ المستشار تاج الدين في قصرٍ أبيض بهيج يقع في قلب حي بُرِّي. الحيّ الكائن شرقي العاصمة الخرطوم، قريبًا من شاطئ النيل الأزرق. لكنه ومنذ أن سكن في هذا الحي العتيق، ظلت الشائعات تحاصر قصره مثل أسنة اللهب.

قيل إنه يعمل في الحكومة، لكنّ أحدًا لم يُجزم بماهية عمله على وجه الدقة. لم يحدث أن ذكر اسمه أو ظهرت صورته في وسيلة إعلامية قط، فليل على الفور إنه مسؤول في أحد الأجهزة الحساسة التي لا تعيش في الضوء. حتى لقب المستشار، سمعوا به من زوجته بثينة لكنها لم تقل لهم مستشار ماذا؟ فهي نفسها لا تعرف أكثر من ذلك. سألوا عبد الله دراج، السمسار الذي باع له القصر الأبيض وغرسه بينهم. قال: إنه لا يهتم، إن كان قد نبع من الأرض أو سقط من السماء!

المهم، سكن تاج الدين في هذا الحي منذ عامين، لكنه طوال هذا الوقت احتفظ بالمسافة التي تفصله عن جيرانه، ولم يحاول مطلقًا أن يكسر سياج الغموض الذي ضربه حول نفسه إلا في تلك الليلة التي دعاهم فيها إلى قصره، وأولم لهم.

لقد كان أمرًا غريبًا لم يألّفوه، من رجلٍ منطوي على نفسه، ومنعزلٍ داخل قصره. يخرج منه في العتمة ويعود إليه في العتمة. يسافر كثيرًا ويقيم قليلًا. لا يجامل أحدًا ولا يشارك مخلوقًا في فرحٍ أو كره.

أما النعيم درّاج فإنه سيظل يتذكر تفاصيل هذه الليلة لوقتٍ طويل، وسيظل يفكر فيما حدث فيها، وما مهد لها، بطريقةٍ لا تخلو من الشغف، ومن الفضول أيضًا. فهي الليلة التي أعادت إلى ذهنه أحداثًا بعيدة، وأربكت ذاكرته المعطوبة غير مرة، ثم استلّت منها وجوهًا غريبة كان قد نسيها أو كاد، ووضعتها في متناول وعيه، وفي صدارة اهتمامه لوقتٍ طويل أعقب تلك الليلة.

لقد كانت ليلةً غريبة، مثل تلك الليالي التي لا تحدث إلا في أوقات متباعدة، ثم تعلق بسقف الذاكرة لسببٍ أو لآخر، كأن يلتقي المرء فيها مصادفةً- بشخصٍ غريب، ثم تنشأ بينهما محبة أو عداوة مبهمة، ويتذكرها المرء بعد ذلك ويؤرخ بها لتلك العلاقة التي نشأت دونما سبب، ودون أن تسبقها أية مقدمات. هل أرخ النعيم شيئاً ما بهذه الليلة؟ هل حدث قبلها ما يمكن أن يعتبر مقدمةً لها؟ أيًا ما يكن، لم يتصور النعيم أن يأخذه الشغف بغموض المستشار تاج الدين إلى هذا الحد، وأن يتبع فضوله بشأن ما رآه وما سمعه وقتًا طويلًا. لكنها أمور تحدث دائمًا، ويتقبلها النعيم بطريقةٍ قدرية مثلما يتقبل أشياء كثيرة في حياته، مثل سوء علاقته بالحكومة، أو خيباته مع النساء، أو حرمانه من الأبناء والعائلة.

في هذه الليلة، دخل النعيم ذلك القصر، مثله مثل بقية سكان الحي، ورأى صاحبه الغامض عن قرب وتحدث إليه. تذكر على الفور تلك المرة الوحيدة التي رآه فيها، حين جاء إلى مكتب شقيقه السمسار عبد الله دراج رفقة زوجته بثينة وشخصٍ آخر لا يتذكر ملامحه الآن. كان الوقت ليلاً. ظل الرجل قابلاً بالمقعد الخلفي للسيارة، صامتًا هادئًا. وعندما سأله عبد الله عن اسمه وعمله من باب الفضول، ابتسم في وجهه ابتسامة غامضة، ثم تطلع نحو الشقيقين دراج بعينين غريبتين، كانتا تلمعان في العتمة مثل عيني قط. قال بنبرة هادئة: تاج الدين، تستطيع أن تناديني تاج الدين! وسكت.

لم يتحدث كثيرًا في تلك الليلة، وحتى القليل الذي أدلى به لم يكن شيئًا ذا أهمية. جاء باحثًا عن بيت، فطاف معه السمسار عبد الله على بعض البيوت الكبيرة المعروضة للبيع في حي بُرّي، وخلال الجولة التي استغرقت ما يقرب من ساعتين لم يبارح الرجل مقعده في السيارة، وإنما ترك المهمة لزوجته ولرفيقهما الآخر.

كانت البيوت جديدةً، كلها، عدا واحد يسميه سمسارة العقارات وسكان الحي بالقصر الأبيض. إنه مبنى مكون من ثلاثة طوابق دائرية الشكل، ومسقوفٌ بقرميد أحمر لكنه يمتد على مساحةٍ واسعة تماثل مساحة أربعة بيوت مجتمعة بحديقته وملاحقه. كان مملوكًا لأحد رجال الأعمال المعروفين، مات عنه وعن مصنعٍ قديمٍ للصابون وبعض البيوت

والأطيان. بيعت جميعها على يد أبنائه بعد أن ضايقهم بعض المتنفذين في الحكومة وسدّوا عليهم مسالك العمل والتجارة، ولم يبق منها إلا هذا القصر العتيد، فباعوه لتاج الدين بنصف سعره وتركوا له ولحكومته البلاد وهاجروا. سَعِدَ تاج الدين لذلك وأجزل في العمولة، وخرج عبد الله دراج مبهتجًا من تلك البيعة أشهرًا طويلة.

طاف كل ذلك بخاطر النعيم وهو في طريقه إلى حفل العشاء الذي دعا له المستشار في القصر ذاته، رغم أنه لا يحب الحكومة ولا يحب رجالها وقصورها ومناسباتها، لكنّ شغفه بغموض الرجل كان فوق التصور. رآه عن قرب وصافحه وتحدث إليه حديثًا قصيرًا ثم جلس بعيدًا يتأمله. لم تغب عنه ملامحه المميزة، سمرته الداكنة اللامعة وعيناه الزجاجيتان الزرقاوان وابتسامته العريضة الغامضة، وكذلك صوته الخفيض المتحشرج. كأنه سمع ورأى كل ذلك قبل الآن، لكنه لم يتذكر بالضبط أين ومتى؟ وعلى الرغم من أن حديثه مع الرجل كان مقتضبًا إلا أنه كان مثيرًا، ولعلّ تاج الدين أرادَه كذلك حين ضغط على يده أثناء المصافحة:

- سعدت كثيرًا لمجيئك يا مولانا. ما كنتُ أظنك تحتاج دعوةً لكي تدخل بيتي!

- إرادة الله غالبية يا صاحب السعادة.

ضحكا، ولم يزيدا على ذلك، لا أثناء المصافحة ولا بعدها حتى عاد النعيم إلى بيته قرب منتصف الليل. طريقة الرجل في الحديث، وكذلك ملامحه شغلت تفكير النعيم. عامان وشهران وبضعة أيام، هي الفترة التي قضاها المستشار تاج الدين في حي بُرِّي قبل أن يموت فجأة. حسبها النعيم في ذهنه حسابًا دقيقًا. إنها تكمل سنوات تقاعده الإجمالي من سلك القضاء عشرةً كاملة، لم يبق فيها. معه من تلك الوظيفة النبيلة سوى لقبها الفخيم (مولانا) مثلما يطلق على كل من تقلدها. عندما أحيل القاضي دراج إلى التقاعد لم يكن قد بلغ الأربعين من العمر! فتحول إلى مهنة المحاماة، وفتح هو وزوجته السابقة غادة. مكتبًا متواضعًا لا يدرّ الكثير من المال، بسبب تطوعهما للدفاع عن فئاتٍ لا يلتفتُ إليها أحد، حتى أصبح المكتب مقصدًا لكل عاجزٍ أمام جشع بعض المحامين وعجرفتهم.

لا يجد النعيم في أغلب الأحيان الوقت الكافي لمزاولة مهنته، فهو كذلك سكرتير نقابة القضاة المفصولين من وظائفهم، وعضو مهم في اللجنة المركزية لاتحاد يتألف من آلاف العمال والموظفين الذين أحالتهم الحكومة إلى الصالح العام بعد صعودها إلى السلطة عبر انقلاب عسكري. لكنهم، مع مرور الوقت أصبحوا قوة احتجاج مدنية ضاربة. تنظم التظاهرات والاحتجاجات، وتكسب في كل يوم متعاطفين جددًا في مجال الحقوق المدنية والإنسانية في داخل البلاد وخارجها، لكن تلك حكاية أخرى.

قال المستشار تاج الدين في نهاية العشاء: «إنه يعتبر نفسه واحدًا من أهل الحي، وما عزلته الدائمة إلا بسبب مشاغله الكثيرة. وإن هذا العشاء عربون محبة بينه وبينهم». طاف على الطاولات واحدةً بعد الأخرى، وصافح الجالسين عليها واحدًا واحدًا، وتحدث إليهم ولاطفهم وابتسم في وجوههم، كما لو أن الذي بينه وبينهم أعرق مما هو مائل في الواقع.

«لقد كان وداعًا!»

هكذا قالوا بعد موته. نعم، مات المستشار تاج الدين بعد أشهر قليلة على ذلك العشاء المثير، موتًا غريبًا غامضًا، وشغل بموته المفاجئ اهتمام أهل الحي ومنهم النعيم دراج. كلما تذكر تلك الليلة التي رآه فيها عن قرب حاول جاهدًا تذكر ملامحه بدقة. الوجه الأسود الممتلئ، الشعر المسدل على كتفيه، العينين الزرقاوين المثيرتين، الحاجبين الكثيفين المقترنين، والندبة المائلة بينهما مثل فاصلة الكتابة. وجعل يؤلف بين هذه التفاصيل حتى يساعد ذاكرته على تكوين صورة يعرفها، لكن الذاكرة لم تنتعش كما كان يأمل.

قبيل موت المستشار بأسابيع قليلة، التقى النعيم بالقاضي بشرى، وهو أحد رفاق الدراسة والسكن في جامعة الخرطوم منتصف الثمانينيات. كان عائدًا لتوه من المملكة العربية السعودية، في إجازة قصيرة عابرة تحدث كل عام أو عامين. وكان لقاؤهما هذه المرة في زفاف ابن صديقٍ مشتركٍ لهما.

أخذتهما الأحاديث الحميمة بعيدًا عن أجواء الحفل وتفاصيله الصاخبة، حتى انقضى كل شيء وانفضّ الناس، وبقيًا يتسامران إلى ما بعد منتصف الليل. في كل إجازة يقضيها بشرى في السودان يحرص أن يجلس إلى النعيم ساعاتٍ طويلة لا يعرفان حسابها، يظلان يتكلمان فيها كما لو أنهما لم يلتقيا منذ سنواتٍ طويلة. أوصلهما الحديث هذه المرة إلى حال السياسة في البلد، وإلى الخلاف المحتدم بين الإسلاميين، وانقسامهم العمودي إلى تيارين أحدهما حاكم والآخر معارض. وفي غمرة الحديث تذكر بشرى أمرًا.

- هل تذكر «عمّار البركس» يا مولانا؟

لم يثر الاسم شيئًا في نفس النعيم أول الأمر. لكن مثلما تنبع أغنية ما بمقاطع قصيرة متباعدة، ثم تتدفق كلها دفعة واحدة، انتصبت أمام النعيم قامة عمار الضخمة، برأسه الأصلع ووجهه الأسود الأمرد، وكذلك عيناه الغريبتان. بدأت ذاكرته تنتعش على نحو غريب، وقفزت إلى ذهنه حادثة ندوة الشيوعيين الشهيرة بالميدان الشرقي للجامعة، خرج منها عمار معصوب الرأس بالشاش الطبي، ومن ثمّ بقيت ندبة مائلة على جبهته. أضاء وجه المستشار تاج الدين في ذهنه أيضًا، وحين تجاهل بعض التفاصيل، كالشعر المتهدل فوق الرأس، وجد شبهًا غريبًا مع عمار البركس!

- أخشى أن تقول إن شيئًا ما أصاب عقلي يا بشرى، لكنّ عمارًا حي، ويعمل مستشارًا في الحكومة باسم آخر هو تاج الدين!

ضحك بشرى.

- ذاكرتك وهنتُ بأكثر مما توقعتُ يا نعيم. عمار قُتل في حرب الجنوب أواخر العام ١٩٩٢.

كان النعيم قد سمع بذلك أيضًا منذ وقتٍ بعيد، لكنه شعر الآن بالتشويش. ماذا عن الرجل الذي رآه بأعينه عن قرب، وتحدث إليه؟ هل كان شبّاحًا؟

- أقول لك إنه هو، بعينيه الغريبتين وندبته المائلة بين حاجبيه
يا بشرى، ولو أنك رأيتَه لما أخطأته.

ابتسم بشرى وهو مطرّق إلى الأرض، وكأنما يحاول أن يستحضر ملامح عمار جيّدًا قبل أن
يستطرد بيقين.

- ماتَ عمار يا مولانا أنا متأكد. عرفتُ ذلك من بعض الإخوة الثقات في أول إجازة عدتُ
فيها إلى البلد.

صمتَ قليلًا قبل أن يضيف.

- ثم إن اسمه عمار وليس تاج الدين، وما ذكرني به ليس هذا الأمر، وإنما شيءٍ آخر. عمار لم
يكن له أهل معروفون ولذلك كُتِبَ نَسْمِيَه عمار البركس. لم يكن يغادر داخلية البركس حتى
في الإجازات. لقد وجد في الإسلاميين عائلة كبيرة، لكن مجاهداته من أجلهم تمّ نسيانها
كأن لم تكن.

ضحك النعيم ساخرًا.

- يا أخي إنهم نسوا الله نفسه، دعك من عمار!

ضحك بُشْرَى أيضًا، لكن لسببٍ آخر.

- رحم الله عمار وغفر له، لقد كان كذابًا عظيمًا!

الطائرة، الساعة ٠٧:٠٣ ص

هأنذا أسافرُ من جديد. الوجهة هي الميناء، مدينة بورتسودان. الغرض الحقيقي يعرفه
الوزير جلال الدين الذي يجلس إلى جانبي. التفاصيل غامضة. قال إنه سيحدثني عنها في
الطائرة.

لكن جلال الدين لا يتكلم.

السفر في حياتي لا ينتهي. ثمة رغبة غامضة للحديث، تملؤني وتلح عليّ الآن، ولا أحب أن أحلق وأنا مثقلٌ بها. التحليق يحتاج إلى أن نتخفف من الأثقال.

جلال الدين لا يرغب في الكلام.

أقلعت الطائرة. الخرطوم تباعد. المدينة مثل مقبرة كبيرة. النيل مثل أفعى أسطورية تزحف داخلها باطمئنان.

جلال الدين لا يتكلم..

الطائرة ترتجّ. دخانٌ كثيف يملأ مقصورة الطائرة ويحجب الرؤية.

جلال الدين لا يتكلم.

تَنق.. تَنق.. تَنق..

جرس الإنذار يدويّ ملء الطائرة. ثمة عطل، ثمة كارثة.

جلال الدين صامت.

تَنق.. تَنق.. تَنق..

صوت قائد الطائرة موتور: «يرجى البقاء في مقاعدكم.. اربطوا الأحزمة».

جلال الدين يصرخ

تَنق.. تَنق.. تَنق..

تتعالى صرخات أخرى. الطائرة تهوي إلى النيل..

...

...

«قتلونا»..

جلال الدين يصرخ..

الطائرة تسقط..

في الساعة والنصف صباحًا أوقف التلفزيون والراديو برامجهما المعتادة، واستيقظت الخرطوم على أصوات تلاوة القرآن. لم يقطع أصوات المقرئين المتصلة إلا بيانٌ رتيب مقتضب من رئاسة الجمهورية ينعى فيه أربعة من كبار المسؤولين، وعددًا آخر من قادة الجيش وبعض رؤساء الهيئات الحكومية. كانوا جميعًا على متن طائرة حكومية صغيرة أقلعت من الخرطوم باتجاه مدينة بورتسودان في أقصى الشمال الشرقي للبلاد. وبحسب البيان الرئاسي المقتضب «فإن الطائرة المنكوبة سقطت في نهر النيل بعد إقلاعها من مطار الخرطوم بدقائق قليلة. نجا من الحادثة أربعة أشخاص ولا يزال أحدُ ركابها مفقودًا».

لم يدر بخلد النعيم دراج ولا سكان حي بُرِّي العتيق أن الشخص المفقود سيكون جارهم الغامض، المستشار تاج الدين. عويلٌ بثينة زوجته، أيقظ الحي كله حتى قبل أن يعلن التلفزيون حادثة سقوط الطائرة، فتدافعوا صوب القصر الأبيض. ماهي إلا ساعة حتى احتل أناسُ أغراب الساحة الصغيرة أمام البيت، ونصبوا سرادق عزاءٍ ضخماً بمكبرات الصوت وبالخدمة الفندقية الفخمة لوفادة المعزين القادمين من كل مكان. حتى إن أهل الحي الذين اعتادوا القيام بمثل هذه المهام الصغيرة المرهقة لم يجدوا ما يفعلونه، فملأوا المقاعد يثرثرون ويتصيدون أخبار الحادثة وتفاصيلها.

مع حلول المساء كان التلفزيون الرسمي يذيع تغطية خاصة عن الحادثة. عرضَ صورَ الطائرة المنكوبة ثم صور انتشار حطامها برافعات ضخمة. ظهرت قطعٌ معدنية طافية فوق الماء بينما كانت فرق الإنقاذ تنتشل جثامين الضحايا وبعض الجرحى الناجين وتنقلها إلى سيارات الإسعاف الرابضة على الشط.

بعض الناجين كانوا يروون ما حدث من أسيرتهم في المشفى بصورة تكاد تكون متطابقة. وصفوا ما جرى بكلمات قصيرة مقتضبة. ترحموا على رفاقهم الذين قضوا في الحادثة،

ونعتوهم بالشهداء.

تاج الدين غرق، غاص في طين النهر أو ابتلعتة سمكة ضخمة أو أكله تمساح أو جرفه النهر نحو مكانٍ بعيد. كل هذه تفاصيل لشكل الموت الذي امتلأت به مجالس الحي، وشغلت النعيم على نحوٍ خاص. قضى هذا اليوم والأيام التالية متنقلاً بين شاشة التلفزيون وسرادق العزاء المنصوب في وسط الساحة وتغطيات الصحف والراديو ولم تسعفه جميعها في إضافة معلومة جديدة. لا بيان الحكومة ولا تغطيات وسائل الإعلام ذكرت اسم تاج الدين صراحةً. أشارت جميعها إلى راكبٍ مفقود دون أن تفصح عن هويته.

بعد الحادثة بأسابيع قليلة، نشرت إحدى الصحف تحقيقاً مقتضباً عن الحادثة، تضمن اسم تاج الدين وصورته للمرة الأولى. أغلقت الصحيفة بعد ذلك ولم تعد للصدور. حاول النعيم بشتى السبل أن يتواصل مع الصحفي الذي أجرى التحقيق، لكنه رفض الكلام ثم أغلق هاتفه وتوارى عن الأنظار.

النهر، الساعة ٠٧:١٦ ص

وحدي، أصارع الآن دوامةً هائلةً وسط هذا النهر العنيد. تدور بي حولي لتبتلعني، وأدور عكس دورانها لأنجو. أقاوم، لكنّ جهلي بالسباحة يجعل الأمور أسوأ. شيءٌ ما يجرنني جرّاً نحو القاع المخيف. شيءٌ ما يثقل جسدي ويسلمه إلى تيارٍ شرس. أدور حول نفسي حتى أواجه الشمس الصاعدة في الأفق. شعاعٌ منها يسقط على عيني، فأفرح. هذا هو الطوق. أمسكُ خيط الشمس. أحاول دفع جسدي نحو الأعلى. الشمس تركض في السماء. تفرّ إلى الأعلى نحو تلك القبة الزرقاء البعيدة. تختبئ خلف غيمة فيفلتُ خيطها من يدي وأسقط.

يغمرنني الماء. أدفع جثتي بكل ما فيّ من طاقةٍ نحو الأعلى. يصعقني شعاع الشمس من جديد، أحاول الإمساك به فتحجبه غيمة. أسقط في الدوامة. أصد. أدور. أهبط. أصد. أستعيد خيط الشمس من جديد، أتمسك به جيداً فأنجو من قبضة الدوامة الرهيبة. أطبق عليه بكلتا يدي. أنتقل إلى صفحة الماء المنبسطة.

سطح الماء دافئ، يصعد ويهبط. طعم الماء مُهلك، أبصقه. صوت الماء يعلو ويخفت، يملؤني بالرعب. الشط بعيد، يبين ويختفي. شعاع الشمس يشق الماء مثل نصلٍ حاد، أتبعه، فيه النجاة، وفيه الهلاك أيضًا.

الموت ليس أمرًا يسيرًا هذه المرة، مثلما لم يكن يسيرًا من قَبْلُ أيضًا. شيءٌ مؤلمٌ جدًّا، أشبه بالنزف الطويل، أشبه بالسقوط في هوةٍ سحيقةٍ معتمةٍ لا قرار لها، أو التحليق عاليًا من غير جناحين، نحو اللانهاية.

كنتُ في كل مرةٍ أواجه فيها مثل هذه الحالة. أحس بالعذاب ذاته، لكنه هذه المرة عذابات كثيرة اجتمعت في عذابٍ واحد. كنتُ في كل مرةٍ أواجه فيها مثل هذه الحالة ترتبك روعي/أرواحي كلها. يحدث الأمر بطريقةٍ يصعبُ تفاديها أو تأجيلها على أي نحو، كأنما هي محددةٌ بأجالٍ مضروبةٍ في الأزل. الموت كتابٌ موقوت.

ثمة انتخاب داخلي غامض، ثمة حاجة خارجية إلى ملء فراغٍ بعينه. أعترف الآن، هذان الأمران هما سبب هذا المخاض المؤلم، هما وجهها هذه الحالة أو تلك في كل تجلياتها، ولا أملك غير أن استجيب، هل تتلبسني حالة جديدة؟

لا أعرف ما الذي يحدث في النهاية، ما الذي ينتظرني عند مصعد الطريق أو مهبطه على وجه الدقة؟ ما الذي سيحدث بعد أن يغادرني آخرهم؟ ومن التالي فيهم؟ ماهي حدود هذه الحالة في الزمان والمكان؟

هذا المستشار الثقيل، لم يكن واردًا أن أكونه بالمطلق! لا أذكر أبدًا أن طائفًا من روحه رفرق بين جنبي. لا أذكر قط أنني شعرتُ بوجوده ضمن ذلك القطيع الذي أنوء به منذ وقتٍ طويل، ولا أذكر أنني شعرتُ بالحاجة إلى ارتداء قناعه الثقيل. جاء به جلال الدين الوزير ثم ثبتته على وجهي بعناية. وضع على رأسي كتلةً من الشعر المستعار كذلك. رجع خطوتين إلى الوراء وتأملني لبعض الوقت ثم ابتسم: «أهلاً بعودتك إلى حضن العائلة».

امتلاث بروحه الثقيلة منذ تلك اللحظة. اشتعلت في روعي رغبات انتقامية مرعبة، خنقتني بالخوف وسوء الظن في كل شيء. جلال الدين الوزير وبعض كبار العائلة أرادوه كذلك، مسخًا مشوّهًا من ماضيه وحاضره، شبّحًا يمشي بين الناس ولا يترك أثرًا. لن يجزم أحدٌ بعد ذلك أنه رآه أو عرفه. وعلى ماذا سيجزم؟ لقد مات عمار وشبع موتًا. مات آخرون من بعده وآخرون من قبله، ولا أحد يعرف تاج الدين على وجه التأكيد، من هو ومن أين جاء؟ وحده جلال الدين يعرف، لكن جلال الدين نفسه مات، وستموث معه أسرار كثيرة. الحاويات الرابضة في الميناء. التحويلات العابرة للقارات، وسمعة العائلة. سمعة العائلة خلف الصورة الكبيرة.

تاج الدين يريد أن يتركني للموت ويغادر. يريد أن يطوي الصفحة التي ملأها بالغموض والحماقات ويمضي. يريد أن يُفلتَ من يده الزانة التي حملتنا إلى القمة ويسقط بي في قاع النهر. لكنه قبل أن يفعل سأذكره ببعض الأمور. إنه الذي اختار وليس أنا. إنه الذي أمسك بقرني الثور وأخضعه لإرادته، ثم أخضع بقية القطيع. كنتُ خائفًا منه في الحقيقة، وخائفًا من أشياء كثيرة، ومن أشخاص كثيرين جمعتني بهم حيواتي السابقة. لقد اختار أن يكونني رغم خوفي مني، رغم خوفي منه. لم يمهلني طويلًا لأفكر، ولم تمهلني الحياة لأختار. لقد كان حدثًا ثقيل المزاج على كل حال.

ثمة قطعة من جسد الطائرة يحملها التيار إليّ، سأضع ثقل جثتي عليها ريثما يقضي الله أمرًا.

النعيم دراج معارضٌ مطلوبٌ للحكومة على الدوام لأنه شيوعيٌّ ملحدٌ في نظرها، وفي بعض الأحيان مخربٌ، وعضو في خلية نائمة وأوصاف أخرى كانت تصيبه بالحنق أحياناً، وبالسخرية في أكثر الأحيان. إنه مزهو بتاريخه المهني والأكاديمي أيما زهو، كيف لا؟ وهو الطالب الأول على دفعته طوال سنيّ دراسته الجامعية، وهو القاضي الكفو الذي أصبحت بعض أحكام القضايا التي فصلَ فيها سوابق قضائية تُدرّس لطلبة القانون. لكنه ورغم كل ذلك فصل من وظيفته دون سابق إنذار، ودون تقصيرٍ يعرضه لعقوبةٍ قاسية من هذا النوع.

قاوم ذلك بالاحتجاج والمطالبات والحديث في المنابر. اعتقل مراتٍ عدة لأسبابٍ معلنة وأخرى مبهمة، وفقد ذاكرته لبعض الوقت بسبب التعذيب ثم استعادها مشوشةً وبطيئة الاستيعاب. لكنه في كل ذلك ظلّ على عناده، وظلت الحكومة على سوء مزاجها تجاهه وتجاه آخرين مثله.

خضع النعيم إلى سلسلة من الملاحقات والتحقيقات من قبل أجهزة الأمن طيلة الأشهر التي تلت موت المستشار تاج الدين. كان يقود مع آخرين حملةً من الاحتجاجات والاعتصامات، نظمها اتحاد المفصولين من الخدمة العامة بمناسبة حلول اليوم السنوي الذي يصعدون فيه احتجاجاتهم ويذكرون الحكومة بقضيتهم.

دخل بعضهم في إضرابٍ مفتوحٍ عن الطعام أمام البرلمان، ومنهم النعيم، لكن أجهزة الأمن اعتقلتهم ثم أجبرتهم على كسر الإضراب. كانت هزيمةً صغيرةً في معركة كبرى ممتدة. التحقيقات لم تكد تنتهي حتى بدأت من جديد، بل عادت أقوى مما كانت بسبب زيارة معلنةٍ لإحدى اللجان الدولية التي تتقصي في أوضاع حقوق الإنسان، وإعلان اتحاد المفصولين لقاء أعضائها وتقديم مذكرة. لم ينم النعيم ليلتين متتاليتين في بيته بسبب ذلك، ليلة في المعتقل وأخرى في البيت وثالثة في إحدى البيوت الآمنة حتى غادرت

اللجنة الدولية دون أن يتمكنوا من لقائها، وحتى شعر بأنه منهكٌ وخائر القوى، فقرر أن يبتعد قليلاً لعله يرتاح أو لعلّ الحكومة تنسى.

أحدُ أقربائه البعيدين، كان قد دعاه لحضور زواج ابنته في مدينة شندي الواقعة إلى الشمال من الخرطوم، وألحّ عليه. كان النعيم يعتذر كلما هاتفه أو أرسل إليه، لكنه قرر فجأةً أن يلبي الدعوة، ويقضي بضعة أيام بهيجة بعيداً عن ضجيج العاصمة وتضييق رجال الأمن.

صعد إلى الحافلة مع شروق الشمس واتخذ لنفسه مقعداً قصياً في مؤخرتها. كان يوم الجمعة، والزحام على أقله في ساعات الصباح الأولى داخل العاصمة.

تذكر عادة. نبعث صورتها صافيةً في ذهنه، وكذلك صوتها وضحكتها وبكاؤها وأحاديثها. اتكأ على النافذة ثم استسلم لأطيافها الحميمة. عادة، الزوجة الطيبة الصابرة، والمحامية النبيلة التي وقفت معه في أحلك أيام حياته، لما طرد من وظيفته في سلك القضاء، ولما كانت الحكومة تلاحقه كلما ساء مزاجها. استرجع كل اللحظات الصعبة وتلك الدافئة التي جمعتهما منذ أيام الدراسة. ثم أسى لنفسه ولها حين تذكر ما جرى بينهما في المحاكم خلال سنتين كاملتين. كيف تحول كل ذلك الحب إلى ضيق، وإلى رغبة في الخلاص، وإلى أشياء أخرى لم يفهم النعيم كيف ولم حدثت؟

كان يحاول أن يتذكر تفاصيل خلافه معها، كيف بدأ؟ وكيف تطور؟ وكيف وصل إلى ما وصل إليه؟ حين انتبه فجأةً إلى أن الحافلة توقفت. نظر من النافذة فرأى سوقاً صغيرةً تقع على مشارف قريةٍ في ضواحي الخرطوم، يصيحُ بعض باعتهما على ركاب الحافلة عبر النوافذ، بالشاي والجراند والسجائر والعلك. صعدت منها امرأة ريانة، ذات وجه مليح وطلّة مريحة. اجتازت خلال الحافلة بهدوء حتى بلغته، ثم جلست في المقعد الوحيد الخالي إلى جواره وحشرته في الزاوية. تحركت الحافلة، وبدأت الخرطوم تبتعد والصحراء أمامها تتمدد.

شعرَ النعيم بجسد المرأة يلاطف جسده مع اهتزازات الحافلة، وفخذها الطري يضغط على فخذَه بشدة، وعطرها الصاخب ينفذ إلى مسام روحه. شعرَ بلذّة غريبة لم يشعر بها مع امرأةٍ من قبل، وبعضوه يقف احترامًا لهذا الحدث. نسي حينئذٍ غبنه من الحكومة، واستغرقته حالة نادرة من اللذة، أغمض عينيه واستسلم لها، ثم أطلق العنان لخياله العاقل عن مثل هذه الرغبات سنواتٍ طويلة.

قفزت إلى ذهنه عادة من جديد، وتمنى أن ترى بعينيها ما يحدث معه ومع شئنه الآن، لكانت غيرت رأيها أو صدّقته على أقل تقدير. عادة كذبتَه في آخر مرة حين قال لها: إنه لاحظ تغييرًا غريبًا على حالته حين زار إحدى القرى القريبة من العاصمة. رأى أنه يضاجع امرأة في منامه، ثم استيقظ في الصباح ليجد عضوه منتصبًا وملابسه غارقة في أثر اللذة، كان سعيدًا لذلك سعادةً لا توصف، لكنها لم تصدقه، بل مضت أكثر في رغبتها في الانفصال. كل ما جرى كان بسبب هذا اللئيم الذي يتحرك بين فخذه الآن، إنه يقوم ويقعد في المكان الخاطئ وفي الوقت غير الصحيح.

لقد خسر النعيم بسببه قضية حياته أمام عادة، وانتهى بهما الأمر إلى انفصالٍ مُر بعد أعوام من التعاسة الزوجية والتقاضي ووساطات الأهل والأصدقاء. كان يرغب في أن تمنحه فرصة أخيرة للتغلب على عجزه، لا سيما وأن تقرير الطبيب لم ينفِ قدرته على الإنجاب، بل أحاله إلى اضطرابٍ نفسي يمنعه من ممارسة حياته الزوجية بكفاءة. هذا أيضًا يمكن علاجه إذا توفر الصبر، لكن عادة لم تفعل.

وصلت الحافلة إلى شندي. شعر بالدم يتدفق إلى عروقه وبروحه خفيفة طليقة كروح صبي مراهق، وهو ينزل بخطواتٍ رشيقة خلف المرأة المثيرة، ثم يتابعها بنظراتٍ فيها مزيج من الرغبة والأسى حتى غابث في زحام محطة الحافلات، وبقي معه استغرابه. لماذا كلما غادر الخرطوم يغادره عجزه ويعود رجلاً؟ ولماذا تحدث الأشياء الصحيحة في الأمكنة الخاطئة؟ لكنه لم يفكر كثيرًا في الجواب.

وصل وجهته بُعيد منتصف النهار. أخذ حمامًا باردًا ثم انضم إلى أفواج الضيوف القادمين من كل مكان للمشاركة في مناسبة الزواج. وجد كثيرًا من أهله وأصدقائه القدامى، وقضى أغلب وقته في الأُنس والسلام وتبادل الأخبار.

رأى وجهًا بين الوجوه الكثيرة، نصف ملثم تقريبًا رغم حرارة الطقس الخانقة. أثاره ذلك وملاه بالفضول. انتهز فرصًا كثيرة للاقتراب منه والتمعن في ملامحه وتصرفاته. أحسّ بأنه يعرفه، وأن صورته تبتعد وتقترب في ذهنه لكنها لم تتضح تمامًا لتحدد له أين ومتى رآه. كان شخصًا نحيلًا فارغ الطول، يلبس جلبابًا فضفاضًا ويضع على رأسه طاقيةً واسعة، وحول عنقه شالًا مطرّزًا يغطي نصف وجهه السفلي. عينه اليسرى أكبر من اليمنى وأكثر حيوية. اليمنى أصغر، كأنها مطفأة!

انتبه النعيم إلى أنه منطوٍ على نفسه وقليل الكلام، وعوّض مشاركة الحديث والجلوس مع الآخرين كان منصرفًا بكل طاقته في خدمتهم، سواءً بتوزيع الطعام أو تنظيم الموائد أو بكل ما من شأنه أن يجنبه مخالطة الناس. في المرات القليلة التي سمع فيها صوته، انتبه النعيم إلى أنه أخنف، ويتجنب النظر في عينيه، بل ويتفادى أن يراه وجهًا لوجه. حاول النعيم إنعاش ذاكرته المعطوبة بطرقٍ شتى، لكن دون جدوى، فمالَ على صاحب المناسبة يسأله. قال له الرجل بحماس.

- لا أعرف اسمه، لكنه يلقب بـ الكّلس. لا يتأخر عن خدمة الناس في عرسٍ أو جنازة.

سكت قليلًا ثم أضاف فيما يشبه النسيئة.

- حسبما سمعتُ والله أعلم، أنه كان مجاهدًا يقاتل في الجنوب، لكنه عاد منه باضطرابٍ نفسي، وقيل إنه حاول قتل أمّه!

ولما رأى فزعًا في وجه النعيم، استطرد وكأنما يعتذر.

- هكذا يقول الناس، والناس يقولون الكثير كما تعرف!

أثاره ذلك أكثر، وحاول من جديد أن يمارس تمرينه المعتاد في إنعاش الذاكرة. دقق أكثر في ملامحه الناقصة حتى طبعها في ذهنه. طاف بها على كل الأمكنة المُحتملة والأشخاص المحتملين، تلك الأماكن التي زارها أو عمل أو درس بها، وأولئك الناس الذين التقاهم فيها، لكنه لم يصل إلى ما يؤكد حقيقة أنه يعرفه. صورته وصوته يروحان ويجيئان في أقبية الذاكرة دون هوية واضحة.

مع حلول المساء خف المكان كثيراً من زحام الضيوف والزائرين وضجيجهم، ولم يبق فيه غير عدد قليل من الناس، فاجتمعوا كلهم على إبريق شاي. حاول الكأس أن يعتذر من صاحب الدار وينصرف، لكن إلحاح الأخير غلبه فجلس على مضض.

كانوا يتحدثون عن موضوع الساحة، صراع الإسلاميين وانقسامهم العمودي على السلطة، وعن حالة الفجور في الخصومة وموجة الفضائح السياسية المنتظرة، وكذلك حالة التنصل من حماقات الماضي. كان الكأس صامتاً، يبتسم كلما سمع شيئاً. كأنه يسخر مما يسمع أو يكلم نفسه. قدموا له الشاي. أزاح اللثام عن وجهه بحذر، فأنحسر عن فم عريض بشفةٍ علويةٍ مشقوقةٍ ولحيةٍ شعناءٍ وحَظَّها الشيب. أضاء الوجه في ذاكرة النعيم، لكن كان الوقت قد تأخر. غادر البعض وتهيأ آخرون كذلك للمغادرة ومنهم الكأس. استدار شبَّحه ليزوب في العتمة. في اللحظة عينها تذكره النعيم، وصرخ باسمه.

وجد النعيم درّاج صعوبة بالغة في استنطاق فتح العليم، واحتاج إلى خمسة أيام بلياليها وهو يحاول أن يجد فجوة ينفذ منها إلى عوالمه المغلقة منذ سنوات. ولولا أن روح الريفى غلبت على طبع فتح العليم لما فتح له داره أصلاً، أو استرسل معه في أحاديث من هذا النوع. كلما ألحّ النعيم، كان يعتذر بأدب مخافة أن يُغضبَ ضيفه، ثم لا يكف عن الرجاء بصوته الأخف.

- خلينا من هذا الكلام يا نعيم، تلك أيامٌ خلت.

يضحك النعيم، وينتقل بالحديث إلى ضفة أخرى حميمة، فيها الكثير من ذكريات أيام الجامعة وشجونها التي لا تنتهي، لكن ما يلبث أن يعود من دربٍ آخر يوصله إلى النقطة التي توقف عندها. لعله بهذه المراوغة المفضوحة يستطيع توسيع الفجوة أكثر، فتتدفق الحكايات دون توقف. هذا ما كان يأمله النعيم حتى بلغ به الصبر ليلته الخامسة لكن دون أن يحدث شيء، وقرر بينه وبين نفسه أن يترك الأمر ويعود أدراجه في اليوم التالي.

كانا يتناولان غداءهما على مهل، لكن دون أن يتبادلا تلك الأحاديث التي امتلأت بها جلسات الأيام السابقة ولياليها. كان النعيم يتأمل خلسةً وجه مضيفه، بدا له مرهقاً، مقهوراً. إنه على كل حال فتح العليم الذي لم يلتق به منذ أيام الجامعة، بجهته اللامعة الصلبة وشعره الأكرت القصير وشفته الأرنبية المشرعة مثل باب الخيمة. أضاف الزمن إليها عيناً معطوبة ولحيةً كثة، ضيّعنا ملامح وجهه تماماً. كان سكونه مُحيرًا، لا كهمودِ الجبل أو سكون المقبرة، بل كسكون الحياة ذاتها بعد الفورة والضجيج. لقد كان فتح العليم أقرب الناس إلى عمار البركس، ورفيقه الوحيد في السكن الجامعي لأربع سنوات كاملة. وكان أحد أهم مساعديه في الإشراف على كتائب الطلاب الإسلاميين داخل الجامعة وخارجها. هذا ما اجتمع في ذهن النعيم بالتدريج، ولعله ما يستحق المزيد من الصبر.

فرغا من غدائهما ثم استلقيا على سريرين متقابلين في صالون البيت. الباب والنوافذ مفتوحة على الشارع الساكن تحت وطأة الهجير. ثمة نسمة باردة هبت فملأت أرجاء الصالون بالخدر اللذيذ والنعاس. خطر للنعيم أن ثمة احتجاج أو حكاية وراء هذا الاعتزال. لا يمكن لتلك الفورة الجبارة من الحماس والشباب أن تنطفئ مثل هذا الانطفاء المحزن، ولا يمكن لذلك القلق والعنفوان أن يخمد كما يخمد الرماد. لابد له من الكلام، لكن متى؟ هذا المزيج من الفضول ونفاد الصبر، شوش على النعيم أفكاره. هل يحاول معه مرة أخرى أم يذهب، ويترك الرجل لعزلة التي اختارها وطمأنينته؟ انتبه فتح العليم إلى استغراق صديقه فيه فاضطرب. وأدرك بفطنته أن النعيم لم يستسلم، وما صمته واستغراقه إلا حديث نفس، والنفس شيطان. رفع رأسه وعدل من رقدته فوق السرير ليواجه صاحبه.

- تركتُ بلدتنا منذ خمس سنوات تقريبًا وانتقلت إلى شندي، تركتُ دار أبي هناك ومزرعته وكل ما يربطني بذلك المكان. تركتُ أيضًا إخوة الأمس بعدما رأيت انشغالهم بالجاه والمال. تستطيع أن تقول إنني بدأت حياة جديدة أخرى، لا شأن لها بتلك الحيوانات السابقة، وأنا أسميها الآن حياة الكفارة، وإني سعيدٌ بها سعادة لا توصف.

ثم ضحك ضحكة هشة.

- كما ترى، أعيش وحدي، لا قريب ولا أخ، ولم يعد لأمي وبنتي من مُعيل. هذا هو الجهاد الفرض الذي لا مهرب منه يا صديقي، لذلك قررتُ أن أعيش ما بقي من العمر من أجلهن. هذا كل ما في الأمر، فلا ترهق نفسك بالتفكير في حياتي التي لا عبرة فيها لأحد.

أطرق قليلاً يفكر. هل يتابع أم يسكت، هل يزيد أم يتوقف؟ ثم حين رأى الفضول يتسع في عيني صديقه أخذ نفسًا عميقًا واستطرد بصوته الأخف.

- حتى عمار الذي سألتني عنه غير مرة فقد مضى إلى ربه وهو حسيبه. لقد اعتزلتُ كل شيء يا نعيم، بإرادتي أو رغماً عني. ما يهمني الآن هو الطمأنينة التي أنا فيها. لذلك، وبحق الأيام الطيبة التي بيننا أرجو أن تتفهم ذلك.

هزّ النعيم رأسه وكأنما يوافق، لكنه بشكلٍ ما كان يردّ على أشياء تدور في نفسه. ثم صمتَ الاثنان بعد ذلك صمتًا هشًّا لم يعقبه كلام. في غمرة هذا الصمت تذكر النعيم ما سمعه عن محاولته قتل أمه، وفزع من ذلك حين طاف بخاطره، لكنه كان ممتلئًا بالفضول والقلق في آن معًا. كيف يسأل الآن عن هذا الأمر؟ صعبٌ أن ينقله إليه كما سمعه، وصعبٌ أيضًا أن يلمح إليه بأية طريقة.

- لم أسألك عن حال أم فتحي، أرجو أن تكون بخير.

- هي بخير..

قال فتح العليم ثم سكت.

- هل يمكنني رؤيتها؟

- هذا مؤكد.. مؤكد

قال فتح العليم مترددًا ثم أضاف.

- إنها في الغرفة الخلفية على كل حال.

ثمة هيكل مكوم في منتصف السرير تمامًا، ولا يبين من هيئته التي كان عليها أنه أحدٌ من الناس. ولولا حركة الأنفاس الهادئة تحت اللحاف لما رآها النعيم أو تعرف إليها. إقترب فتح العليم ثم رفع الغطاء عن وجهها بهدوء ومسح على جبهتها الصغيرة بحنو. فتحت عينيّين رماديتين مطفأتين في عيني ولدها، نظرت إليه نظرة قصيرة ثم نقلت بصرها ببطء إلى النعيم وثبتته هناك. برهة من الوقت، لم ترمش فيها رمشة واحدة، ثم تتابعت رمشاتها وهي تحاول جاهدة تركيز كل حواسها في وجه النعيم الذي لا يزال واقفًا في وسط الغرفة، يحجب عن عينيها الضوء القادم من الباب.

- هذا هو النعيم يا أمي، صديقي من أيام الجامعة.

قال فتح العليم بصوته الأخف، وهو يجتهد في رفع صوته حتى تسمعه. لم تنطق بشيء لكنها فتحت عينيها أكثر وهي تتطلع إليه. شعرَ النعيم بأنها تقول له شيئًا، لم يدرك تمامًا ما هو، لكنه شعرَ به. ثم سمع حممة خافتة. نظر إلى فتح العليم لعله يقول شيئًا لكنه التزم الصمت. عادت إلى نظرتها المثبتة في عيني النعيم. حاولت أن تتكلم من جديد وهي تشير بأصابعها المعروقة ناحية ولدها، لكن صوتها كان واهنًا ومبحوحًا إلى درجة أن النعيم لم يتبين منه شيئًا. حاولت مرة أخرى وثالثة لكنها لم تفلح، ثم غلبها ما يشبه البكاء أو الاحتجاج وهي تفرفر تحت اللحاف فرفرة عصبية بائنة. اقترب منها فتح العليم محاولاً تهدئتها، ثم ضمها إلى صدره، وأشار إلى النعيم ليخرج.

خرج النعيم حائرًا، لكن إلى الشارع هذه المرة. وقف لبعض الوقت، يداه في جيبي بنطاله، يتأمل في لا مبالاة طفلي فتح العليم وهما تلعبان أمام البيت، ويتأمل حركة الشارع التي بدأت تنتعش بعد الزوال. كان يشعر بمزيج من الحرج والفضول لما جرى. أحس مرة أخرى بذات الشعور الذي خالجه وهو معها. لقد رأى في عينيها بريقًا غريبًا، وشعر بكهرباء غامضة تسري عبر هواء الغرفة من عينيها إلى جسده. أحس بذلك الحديث المكبوت الذي خنقه الضعف وانتهى في حلقها، أحس به في قلبه. لم يتأخر فتح العليم كثيرًا، جاء مطأطأ رأسه إلى الأرض، لم يكلمه حتى وقف خلفه تمامًا.

- نامت أخيرًا.

قال بصوت متهدج ثم زفر هواءً كثيفًا من صدره. لم يلتفت إليه النعيم إلا بعد أن شعرَ بأن أنفاسه هدأت. سارا في الطريق العريضة الفاصلة بين بيوت الحي، والتي تأخذ السائر فيها إلى خارج مدينة شندي، إلى طرف الصحراء. سارا صامتتين حتى بلغا كُثيبًا رمليًا يمتد بمحاذاة البيوت من ناحية الشرق ويطل على الطريق البري الواصل بين العاصمة والميناء. هناك جلسا، ظهراهما إلى المدينة، ثم أخذ فتح العليم نفسًا عميقًا وبدأ يتكلم.

مهما قلت لك يا ابن عمي فإنك لن تصدقني، وإذا صدقتني فإنك لن تسلم من الداء، هذا مصيرك في نهاية الأمر ما دمت مُصراً. أعرف جيداً هذا الشغف الذي يلمع في عينيك، إنه الشغف ذاته الذي ورطني من قبل، إنه باختصار إرهاب المرض. لن تشفى منه في نهاية المطاف أعرف هذا، وأعرف أيضاً أن ما سأقوله لك لن يكون دواءً بقدر ما أنه جرعة من المرض نفسه. هناك أشياء من الأفضل للمرء ألا يعرفها، وإذا عرفها فإنه لن يسلم، ولذلك احذريا ابن عمي، من خاف سلم، ومن نصح فقد أبرأ الذمة.

صدقني، لم أكن أعرف أنه شيطان، ولو كنتُ أعرف شيئاً يسيراً مما عرفت لاحقاً لتغيرت أشياء وأشياء، ولابتعدت ما وسعني أن ابتعد، لكن ما فائدة الندم بعد فوات الأوان؟ للحق، ألوم نفسي الآن بسهولة لأنني أخذت هذه المسافة الكافية من أيام عمار وحماقات، واستطعت إدراك الحقيقة. لكنني لم أكن لألام وقتئذٍ، فقد كنتُ غراً ومأخوذاً به، وكان غيري كذلك.

كل شيء فيه يجذبك إليه منذ الوهلة الأولى. ضحكته المتصلة، مرحة الأبدى، شغفه بالمعرفة، حبه للحياة، وسحره في الحديث. كل ذلك يجعلك تدور في فلكه، لا، بل تحبه إلى الحد الذي تتمنى أن تكونه، وهذه هي بداية الداء. كانت تدهشني خبرته في الحياة، الخبرة التي لا تستثن شيئاً، من نشوء الخلق إلى أسرار التاريخ ووصفات الطبخ والجين الوراثي وطبائع الشعوب وخبايا الحرب الباردة وكل شيء، وهذا ما ورطني معه تلك الورطة المهلكة. في أول يوم رأيت فيه قال باستعلاء واضح، بنبرة هادئة.

- أنت، ستسكن معي!

هكذا اختارني ببساطة. مثلما يختار الاسم صاحبه الذي سيحمله إلى الأبد، ومثلما تختار الصاعقة الشجرة التي ستسقط عليها، الشجرة التي خلقت وعاشت تنتظر هذه اللحظة.

إنني أيضًا عشتُ في انتظار لحظة لقائه وكأننا نعرف بعضنا منذ قرون. هل قلت منذ قرون؟ نعم، هو الذي قال ذلك.

أذكر ذلك اليوم الصيفي جيدًا يا نعيم، كنتُ قادمًا لتوي إلى العاصمة من قريتي. أنا الوحيد من مدرستي الذي أحرز المجموع المناسب لدخول الجامعة. لم أجد رفيقًا أطمئن إليه، وأقتسم معه غرفة السكن الجامعي. طلب مني مشرف السكن الانتظار في الظل ريثما أجد رفيقًا. أخذتُ متكئًا بين حقيبتي الحديدية الكبيرة وصندوق كتبي. كان الهواء في الظل باردًا فأغفيتُ في مكاني حتى يُحدِثَ الله أمرًا.

لا أعرف كم لبثتُ على تلك الحالة حتى أيقظني صوته المتحشرج وهو يتحدث إلى الموظف، فانتبهت. لم أرَ وجهه أول الأمر، كان يوليني ظهره. رجلٌ عريضٌ أصلع، فارع الطول. وقف واضعًا يديه على جنبيه وهو يتحدث إلى الرجل حديثًا طويلًا، ثم التفت ناحيتي وابتسم. فاجأني وجهه اللامع الأمد وعيناه الزرقاوان الغريبتان. تلك كانت لحظة العبور التي لا رجوع بعدها.

ثمة أمرٌ آخر، منذ أن وعيتُ في هذه الدنيا والكوابيس تقلق نومي، لدرجة أنني اعتزلتُ الناس. كنتُ أنام وحيدًا أغلب الوقت إلا من جدتي التي كانت تؤثرنني كثيرًا وتخاف عليّ. قُبلتُ بالجامعة. قلتُ لنفسِي إنها فرصة، لعلّ الشيطان الذي يسكن في بيتنا لن يتبعني إلى الخرطوم. بالفعل، تلك الكوابيس راحت، وحل محلها نومٌ عميق هادئ، وانصرفتُ بكل طاقتي نحو الدراسة والأنس والمجالس. لكن ما أن كاد الفصل الأول في الدراسة ينقضي حتى عادت أقوى مما كانت، مفزعة أكثر ومتكررة. أستيقظ، أستعيد من الشيطان وأستغفر ثم أنام، وأحيانًا كثيرة لا أستطيع.

لم يكن عمار يسألني عن ذلك رغم أنه كان يراه ويسمعه كل ليلة، حتى جئتُ على ذكره بنفسِي ذاتَ يوم وليتني لم أفعل.

قلت له: إنني دائماً ما أرى نفسي عارياً في المنام، والناس ينظرون إليّ باشمئزاز. أعبّر سوقاً مزدحمة، وأحياناً أراني في ملعب كرة قدم مليء بالناس، واقفاً وسط الملعب تماماً، والآلاف الذين يحيطون بي يشيرون إليّ وهم يسخرون. وأحياناً أخرى أراني معلقاً بخطاطيف أمام دكان جزّارٍ مخيف الهيئة. أراه يبردُ سكينه الحادة ثم يمسك بعضوي ليقطعه فأستيقظ مرعوباً. وفي أحيان كثيرة أراني أضاجع أمي أو أضرب أبي أو أقتله! تتبدل الأحداث كل ليلة لكنّ رؤيتي عارياً ومرعوباً لا تتبدل.

لم يقل شيئاً، وإنما أطرق ريثما نصل مقعداً إسمنتياً، منصوباً تحت شجرة عتيقة قرب السور الشمالي للجامعة والمحاذي لنهر النيل. جلسنا ووجهنا نحو السور نتأمل السيارات والمارة. لا أعرف كم مضى من الوقت قبل أن يقول.

- كيف هي علاقتك بأبيك؟

ورغم أنني استغربت سؤاله إلا أنني قلت.

- ليست جيدة، هو في حاله وأنا في حالي منذ سنوات. كان يضربني كثيراً في صغري وكنتُ أكرهه. لكنني الآن لا أشعر تجاهه بأي شيء. إنه أبي وحسب.

وللحقيقة، فإن أحد أهم أسباب تفوقي في الدراسة ودخولي إلى الجامعة كانت تلك العلاقة المضطربة مع أبي. دائماً ما أردتُ أن أبني حياتي الخاصة بعيداً عنه وعن الجو المشحون بالخلاف دائماً بينه وبين أمي. كان ميسور الحال ويملك مزرعتين وبيوتاً كثيرة. لم أشأ أن أقول له ذلك، فأنا لم أعود الحديث عن أبي لقريب أو بعيد، لا بالخير ولا بالشر، ولا أعرف كيف قلت ما قلت لعمّار. ربما كان بسبب ما أعانيه، أو ربما بسبب حاجتي إلى الحديث مع أي كان. على أي حال أطرق صديقي مرة أخرى، فرك يديه ببعضهما وكأنما يتردد في قول ما يريد.

- سامحني على تطفلي مرةً أخرى، هل للأمر علاقةٌ بهيئتكَ؟ أقصد الوحمة التي على بطنك!؟

- كلامك غريب، ما علاقة هذا بذاك؟

لم يقل شيئاً بعد ذلك ونسيْتُ الأمر، وهو كذلك لم يعد إليه إلا بعد أيام لا أذكر حسابها الآن. كان يوم إجازة، فاقترح أن نخرج بعيداً عن محيط الجامعة والسكن وضجيج الطلاب فقصدا النيل. سرنا طويلاً بمحاذاة الشط حتى بلغنا ملتقى النيلين الأزرق والأبيض. كنا نتكلم في أمورٍ أخرى سياسية بالأساس، تتعلق بالمكائيدات بين الأحزاب، وتتعلق بالحكومات التي كانت تأتلف وتنفض دونما سبب. أوصلتنا أحاديثنا إلى جسر أم درمان، ونزلنا من أحد جوانبه عبر منحدرٍ حادٍ إلى شط النهر، ثم اتخذنا مجلساً تحت أعمدته المغروسة على ضفته الشرقية من ناحية الخرطوم. الهواء الذي يغتسل في النهر كان يأتينا صافياً منعشاً، والرمل أسفل مئنا ناعمٌ طري، فاستلقينا على ظهرينا نتأمل بطن الجسر، ونتابع أصوات حركة السيارات التي تعبر فوقه. لم يقطع ذلك كله إلا حديثه الغريب.

- سأحكي لك اليوم حكاية إيزابيل وزوجها المثلي، ولعلك لن تسمع مثلما سأحكيه لك من أحدٍ آخر، هل تحب ذلك؟

- لا بأس.

قلْتُ. حمحمَ قليلاً ثم استطرِد.

- كانت الملكة إيزابيل الابنة الوحيدة لملك فرنسا فيليب الرابع، وكانت جميلة وفاتنة، ومتمردة أيضاً. وللحق، فإن الأهم من ذلك كله أنها كانت تتمتع بذكاءٍ متقد ورجاحة عقلٍ بائنة، لن تبقىها أكثر من سنوات معدودة في قصر أبيها. تزوجت إيزابيل الجميلة في سنٍ صغيرةٍ جداً، في العاشرة أو أكبر من ذلك بقليل من إدوارد الثاني ملك إنجلترا. ولك أن تتخيل، تلك الصبية اليافعة والطموحة والقادمة من بلاطٍ ملكي، ماذا يمكن أن تفعل في

بلاط زوجها إذا تقدمت بها السنوات؟ لعله كان ينبغي على الأسرة الإنجليزية الملكية أن تحسب حسابًا لذلك لكنها لم تفعل، حتى سبقت مكائدها حذرهم المتأخر، وقادت انقلابًا مع عشيقها على زوجها. كان إدوارد الثاني مثليًا، وتربطه علاقات غرامية عدة مع عدد من نبلاء إنجلترا، أشهرهم واحدٌ يقال له بيل. لم تستطع إيزابيل تقبل هذا الوضع الغريب لزوجها، فهربت إلى فرنسا، ثم عادت في صحبة عشيقها روجر مورتيمر أحد أيقونات العشق في ذلك الزمن، لتزيح زوجها المثلي من عرش إنجلترا وتستولي عليه بحجة الوصاية. الوصاية على العرش لابنها من عشيقها مورتيمر والذي حمل لقب إدوارد الثالث. لقد كان إدوارد الثالث ذا بطن ملساء مكورة، وكانت تحيط بسُرتة هالة سوداء، لعلها وحمة. لكنه كان ملكًا منتظرًا، ولا يمكن لأبيّ كان أن يذكر عيوب الملوك في حضورهم. لكن مورتيمر كان يفعل هذا دون أن يطرف له جفن، كان يناديه ساخرًا- بذي البطن المثقوبة. كان وإيزابيل يمارسان وصايةً حقيقية على ابنتهما الدميم، ولي العهد ووريث العرش المزيف. ذلك كله لم يرق للعائلة المالكة، فإذا كانوا يعلمون بحقيقة الأمر فإن العامة تعتقد أنها محكومة بتفويض إلهي، وأن ملكهم ظل الله في أرضه حتى ولو كان ابن حرام. ستسأل طبعًا كيف عرفت كل هذا؟ وسيذهب ظنك إلى أنني قرأته في كتاب أو سمعته من أحدٍ ما. إلا أن الحقيقة هي أن روعي كانت شاهدةً على تلك الأحداث. أرجو ألا يتبادر إلى ذهنك أنني ممسوسٌ أو أهذي. إنني عشت حيواتٍ سابقةً كثيرةً يا فتحي، ومن ضمنها هذه الحياة التي أحكي لك الآن عنها. إنّ فيّ طيفًا من روح النبيل توني بيل، ولا أزال رغم كل شيء أذكر تلك العلاقة الصاخبة مع المبجل إدوارد الثاني. لقد كان ملكًا رقيق الحاشية، صافي المودة، ودافئ الروح والمشاعر. كنتُ آخرين قبله وآخرين من بعده. زعماء ومثليين وعاهرات وعبيد وفراشات وأرواح كثيرة مررتُ بها في حيواني السابقة، والله وحده يعلم، أين ستذهب هذه الروح المتعبة بعد أن تفارق هذا الجسد الضخم. لقد جربتُ روح ذلك العاشق الغريب توني بيل يا فتحي، ثم تخلصتُ منها بصعوبة وأنا على أعتاب الجامعة، تلك كانت هداية ربي، والله يهدي من يشاء. استسلمتُ بعدها ولا أزال إلى روح مجاهدٍ عظيم، قاد حروبًا كثيرة لنشر الإسلام في عهدٍ بعيد، لكنها حكاية أخرى سأتي لك على ذكرها في الوقت المناسب.

على كل حال، خلال حيواتي الممتدة إلى أكثر من ألف عام لم أجد ذوي الوحات السوداء على بطونهم إلا تعيسين في حيواتهم مع آبائهم، مثلما أخبرتك الآن عن إدوارد الثالث، أو مثلما كان حال الأمير وولي العهد شاهزاده مصطفى مع أبيه سليمان القانوني، والذي قتله في نهاية الأمر حتى لا يخلفه على العرش لأنه لم يكن من صلبه، ولن تجد هذا في كتاب أو يحدثك به أحد! كذلك الحال مع المعتضد بن عباد ملك الأندلس الذي خنق ابنه إسماعيل وقتله بيديه ثم ندم لاحقًا. هذا قليلٌ من كثير حفل به تاريخ الإنسانية. أرجو ألا تغضب مني يا فتحي، لا أقصد بذلك إهانتك أو التشكيك في نسبك، معاذ الله أن أكون من الجاهلين. إنما الأشياء تذكر ببعضها، ونحن كذلك نسلي أنفسنا ونسرّيها.

قرأت كثيرًا حول هذا الأمر، وهو موجود لدى شعوب وديانات كثيرة كالدروز والصينيين والهنود والأفارقة. تعرف؟ قرأت مرةً لكاتبٍ مشهور من جنوب إفريقيا اسمه دانييل تابو، وقد كان مرشحًا لنيل جائزة نوبيل في سنةٍ من السنوات، لكنه لم ينلها بسبب موقفه المناهض للفصل العنصري في بلاده وفي فلسطين. المهم، حكى في ذلك الكتاب عن أحد أقاربه بلغ نحو مائة وعشرة من السنوات. يقول إنه عاش حيوات سابقة كثيرة، ومنها حياة في عالمٍ آخر هو عالم الجن. حكى في الكتاب حكاية طويلة، لن أرويها لك كلها. يقول تابو على لسان ذلك الرجل: كنتُ مرةً جنياً، اسمه جوران، عاش في خدمة ساحرٍ عتيد من سحرة الزولو. عاش في دغلٍ موحشٍ على ضفة نهر بونغول. ذلك الساحر كان يعمل في خدمة شالكا العظيم أحد أهم زعماء قبائل الزولو في مطلع القرن التاسع عشر. لم يتخذ أبداً، أمراً من الأمور المهمة دون الرجوع إليه، خاصة إذا ما تعلق بشأن الحرب أو الأمور التي تهم العرش وشؤون الحكم. يقول: أرسلني الساحر في مهمة مستعجلة لأتبع حكاية غريبة كانت تحدث بين زوجة شالكا الصغرى الجميلة مورिका وعشيقها الوسيم ماتيما. ذهبْتُ ووجدتهما يمارسان الحب في أحد الكهوف النائبة. عدتُ سريعاً وأخبرته، فطلب مني أن أبقى إلى جوارهما إلى أن يُفرغ الرجل ماءه فيها ثم أدخل رحمها وأنتظر هناك حتى يتشكل الجنين. وحين يحدث أضع هالةً سوداء في بطنه، حول منبت حبله السري!

بعدما خرجتُ ذهبْتُ إلى أبي وسألته، فأجابني: نحن نسمي ذلك الفاكهة المحرمة، وعندما تنضح فإننا نعلمها حتى تُعرف».

اصغ إليَّ جيدًا يا فتحي. من الأمور النادرة أن تلتقي روحان عاشتا في عصرٍ سابقٍ كَرَّةً أخرى. ذلك لسببٍ بسيطٍ أنهما ستعيدان إلى العالم جزءًا من تاريخٍ مشتركٍ غير جيد بالضرورة، وحماقات لا قبل له بها في محاولة لتصحيح ذلك التاريخ، وإن كان بشكلٍ غير مقصود. يحدث الأمر بطريقة غريبة. قد لا يدرك الشخصان ما يحدث معهما بالضبط، ولا يستطيعان تعريفه على الوجه الصحيح. إنهما يقتربان من بعضهما بشكلٍ ما، ثم يحسان مع مرور الوقت أنهما قد عاشتا تجربةً مشابهةً في وقتٍ ما أو مكانٍ ما، ويستطيعان كذلك أن يتنبأ بما يمكن أن يقع لهما بعد لحظةٍ أو بعد وقتٍ أطول. هذا يحدث الآن، لكنني على العكس مما قلت لك أستطيع أن أحدهه بدقة. وصلت إلى ذلك بعد جهد، وبتابع تمارين خاصة، أتقنتها، فصارت مهارة. إذا رأيتُ أحدًا من الناس ونظرتُ في عينيه أعرف بعض الحيوانات التي مرت بها روحه. أعرف حظوظه في الحياة كذلك، شقيّ هو أم سعيد. بعض الناس أرواحهم قديمة عاشت حيوات كثيرة، وبعضهم الآخر أرواحهم جديدة، غضة وطازجة. لا يملكون خبرةً في أي شأنٍ من شؤون الحياة.

لا أعرفك قبل الآن يا فتحي لكنني أعرف روحك العظيمة التي تسامت على آلامها، وصنعت مجدًا للإسلام وأعادت المسلمين إلى طريق الحق والفضيلة في زمنٍ ما. إرم كل ما سمعتُ مني وراء ظهرك ولا تهتم له. تأمل اسمك الذي وهبك الله إياه وكن لنا فتحًا وعودًا. نحن اليوم قلة مستضعفة لكن سيكون الأمر كله بأيدينا يوم غد. لقد عمَّ الفساد في البر والبحر. ابتعد الناس عن دين الله، وعمت الفحشاء فيهم. إنهم اليوم أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان. وما السيف إلا كلمة الله على الكافرين.

النهر، الساعة ٠٧:٢١ ص

من الوهلة الأولى أدركتُ أن صاحبي بسيط، وأن أعماقه قريبة، ضحلة، ولن يكلفني صيده سوى بضع حكايات ومواقف ملفقة. هذا النوع من الناس كثير، لكنه على كثرته غير مأمون.

أقول غير مأمون لأنه بالسهولة ذاتها التي تصطاده بها يمكنك أن تفقده، ولذلك أنت في حاجة دائمة إلى ابتداع أساليب تناسب بساطته في الأخذ والترك، وأنت في حاجة أكثر إلى أن تبقى في مدار تأثيرك ما استطعت. السذاجة نعمة عظيمة، لو فقدنا هذا العالم لاحتاج إلى أن يخترعها مهما كلفه ذلك.

أحد الإخوة سامحه الله كان قد وضع على عاتقي تلك المهمة القاسية ثم أخذ يراقب أدائي فيها. إنها ورطة على كل حال، لا سبيل إلى الاعتذار منها أو الاعراض عنها. لم أكن قد أدركت بعد أن الأفكار السياسية مثل الأديان، وأن تكليفاتها المبهمة لا تتطلب شرحًا، فهي بذلك تفسد، وتفقد هيبتها الغامضة وجلالها المقدس. قبول التكليفات على علاقتها، يجعلك ضمن القطيع الآمن. ترتاح من التفكير، وتكون معصومًا من أحاديث النفس وشياطينها، وهذه هي فضيلته الكبرى.

«ستكون مسؤولاً عن كتائب التأديب!».

وجدتني بعد هذه الجملة القدرية- مسؤولاً عن حقبة تالية من الحماقات والعنف. حقبة امتدت طويلاً، أطول مما ظننتُ بكثير. حسنًا، هل فكر الرجل في الأمر؟ هل فكر في أمري على نحو أدق؟ لعله فعل، أو لعله قرأ شيئًا عن حياتي البعيدة، أو اخبروه عنها بطريقة أو بأخرى، فحمد الله أن وجد غمداً مناسباً لسيف الله والجماعة، ثم وضعه على كتفي وانصرف لشؤونه الأخرى. سامحه الله وسامحني أيضًا، لأنني على نحو ما- احتفظت بالغمد لنفسي ووجدتُ للسيف غرًا آخر.

حينما نظرتُ إلى وجه فتحي، وإلى عينيه الطيبتين قلتُ في نفسي: هذا هو المخلص الذي سيحمل عني همّ الجماعة وسيفها وهيبتها ومجدها. لم يكن يعنيني كل ذلك بأي حال، ولو أن الله قيض لي غيرهم لخدمتهم بمواهب العظيمة، ولاشتريتُ تبنيهم بما هو أتفه من ذلك أو أغلى. لا يهم، كلهم في نهاية الأمر- يتساوون في النبل والندالة.

كانت تعينني نفسي أكثر. كانت تعينني الطريق التي بقيت فيها وحدي بعد تلك الحادثة. لم أشأ أن أكمل السير فيها عارياً، وحيداً. ماذا يفعل الإنسان إذا نبت من العدم ونشأ في العدم؟ ماذا يفعل إذا كان مقهوراً وخائفاً؟ إنه يساوم على بقائه ضمن إطار العائلة. العائلة التي ستهب اسماً ووصفاً جديدين. وفي مثل حالتي، شخصيةً أخرى، حياةً أخرى، بل شخصيات وحيوات لا يربطها بماضيها رابط. كان عليّ أن أحافظ على ذلك مهما كلفني، وهذا ما فعلته.

فليسامحني صاحبي إذن. لم يكن إلى غير ذلك من سبيل، ولم يكن أمامي غير أن أجد ضحيتي منذ اليوم الأول، ولا بد للضحية أن تشعر أنها ضحية لشيء آخر حتى تقبل دورها الجديد، مثلما حدث معي تماماً. هذا الشعور مهم. السير في طريق كهذه مجازفة غير مأمونة، ولا بد له من دافع متصل، ولا بد لهذا الدافع من قدرة ذاتية على البقاء طويلاً. فكرت كثيراً حين رأيت، أي مصيبة تليق بهذه الفطرة الساذجة؟ ومن أي المحطات يمكنه أن يصعد إلى قطار المصائب؟ ظللت أراقبه طيلة الفصل الدراسي الأول. انتبهت إلى أمرين حينئذٍ، أولهما أنه منقطع عن الناس، وثانيهما أنه قليل النوم وكثير الكوابيس. أدركت بخبرتي أنه يعاني من شيء ما، وهذا الشيء هو مدخلي إلى إيقاعه في المصيدة.

ظللت أفكر لأسابيع طويلة، كيف أضعه على أول الطريق؟ حتى لاحظت مصادفةً أن بطنه ملساء مثل بطيخة ضخمة، وتقوم حول سُرته وحمه سوداء كبيرة تحيط بها إحاطةً كاملة. جزعت من ذلك أول الأمر. ذكرني بحادثة قديمة مضى عليها ما يقرب من عشرة أعوام، حولت مسار حياتي على نحو ما خططت له أبداً. لكن سررت على كل حال لأنني وجدت ضالتي، واقتربت من هدفي بأفضل مما خططت له. لفتت له حكايات كثيرة، لا عرق لها في التاريخ، ولا قرابة لها مع الحقيقة، ثم حقنت بها تفكيره وتركته. ولعله أخذ منها ما أردت له أن يأخذ.

كان النعيم دراج أو مولانا النعيم كما هي شهرته، أحد الطلاب المتفوقين في كلية القانون بجامعة الخرطوم في منتصف الثمانينيات، وهو يتذكر تلك الأيام بكثير من الغبطة والامتنان. فهي إلى جانب نصاعتها في ذهنه، فقد كانت من أزهى أيام حياته. إنها الأيام التي قربته كثيرًا من كل الأفكار الوطنية والسياسية التي كانت تتفاعل داخل محيط الجامعة وخارجها بسبب نجاح الانتفاضة الشعبية على نظام النميري، لكن دون أن ينغمس في أيٍّ منها. إنها السنوات التي خلقت تلك المسافة المهمة بينه وبين ممارسة العمل السياسي في الوقت ذاته. فعلى العكس من أنداده وأقرانه الآخرين الذين تورطوا في ذلك، فإنه مدينٌ لحادثةٍ عنفٍ وقعت في مسرح النشاط الطلابي وهو في السنة الأولى باعدت كثيرًا بينه وبين الانتماء السياسي. كانت حادثةٌ دامية جرت بين الطلاب الإسلاميين بقيادة عمار البركس وفتح العليم وبين رصفائهم اليساريين وأدت إلى مقتل أحد طلاب اليسار. أُنهم فيها أحد معاوني عمار، لكنه هرب بعد ذلك ولم يُعثَر له على أثر.

قرر النعيم ألا يقترب من العمل السياسي يمينه أو يساره، وألا يصوت في أي انتخابات تخص اتحاد طلاب الجامعة وألا يشترك في أي نشاط أو نقاشٍ سياسي عام. قرر أن يكون منفتحًا إزاء كل الأفكار التي يتعثَر بها خلال يومه الجامعي، أن يدير معها حوارًا صامتًا ويخلص إلى نتائج لن يُطلع عليها أحدًا، ولن تضمه في النهاية إلى أي قطيعٍ سياسي. وعلى العكس من بشرى، زميله ورفيقه في السكن، والذي اختار السير يمينًا مع الطلاب الإسلاميين، قرر أن يأخذ تلك المسافة من الجميع، والتي لا يزال يدين لها بالفضل في تفوقه الأكاديمي ودخوله مصلحة القضاء، لكن السياسة لم تتركه في حال سبيله إلى اليوم، وهو يعدُّ ذلك قدرًا لا مفر منه. ما يتذكره النعيم أن عمار وفتح العليم كانا يتقدمان عليه بسنةٍ واحدة في كلية القانون ذاتها، لذلك لم تنشأ رابطة قوية بينه وبينهما. كانت علاقة بعيدة حذرة، رغم محاولات عدة بذلها عمار لاستدراج النعيم وتجنيدِه في صفوف الطلاب

الإسلاميين بسبب نبوغه واتزان تصرفاته أولاً، وثانياً بسبب قربه من بشرى، لكنها باءت بالفشل.

يتذكر النعيم الآن ذلك الحوار الغريب الذي جرى بينه وبين عمار البركس ذات ليلة شتوية وهما خارجان من مكتبة الجامعة. أدرك وقتها أن لقاءهما لم يكن مصادفة محضة وإنما كان مقصوداً، إذ إنه وبمجرد خروجه من المكتبة خرج عمار في إثره، وسار إلى جواره عاقداً يديه خلف ظهره، ثم بدأ يتحدث إليه كما لو كان صديقاً قديماً.

- هل فكرت يوماً لِمَ نحن هنا يا نعيم؟ هل تأملت وجودنا في هذا المكان من أساسه؟

استغرب النعيم السؤال، وفكر لوهلة أن يرد عليه بسؤالٍ آخر لكنه فضّل أن يتريث، إنه لم يخرج في هذا الزمهرير إلا لغاية.

- هذا لم يخطر على بالي في الحقيقة، الحاضر قد أدركته على كل حال، إنما يشغلني المستقبل، فأنا هنا من أجله. هل تراني أجبتُ على سؤالك؟

شعرَ عمار بالارتياح.

- حسناً فالغاية هدفي أيضاً، لكن قل لي كيف تفكر فيها؟

صمت النعيم قليلاً.

- لا أفكر فيها الآن، أنا مشغول بما ينبغي عليّ فعله من أجلها كما ترى!.

ورفع كتبه أمام عينيّ عمار الذي توقف عن السير.

- لا بد أنك تمزح؟ ألا ترى تناقضاً فيما تقول؟

ضحك النعيم ضحكة هادئة.

- لا، ليس كما فهمت. أنا أعرف ما أريد ولذلك أنا مشغولٌ بالاستعداد له.

تابعا سيرهما مجددًا، كانا قد خرجا من حرم المكتبة إلى طريق عشبيةٍ نحيلة تربط بين داخلات الطلاب وبعض كليات الجامعة ومرافقها، قال عمار.

- حسنًا أيًا كان ما تريده، فالغاية ينبغي أن تكون عظيمة والهدف نبيلًا كذلك، وأرجو أن تسمعني بقلبك لا بعقلك يا نعيم.

صمتَ النعيم ليعطيه المجال ليكمل.

- إننا ندرس القانون لكي نلتفّ عليه في نهاية المطاف أو نتجنبه. ما فائدة أن نصبح كلنا قضاة أو مستشارين أو محامين؟ إن المجتمع لا يحتاج إلى هذا العدد الهائل منهم. وإذا أردت الحق فإنه يحتاج إلى إصلاح يمنعه من اللجوء إليهم. المجتمع الصالح أقل ميلًا إلى الفجور والخصومة وارتكاب الجرائم، وبالتالي أقل حاجة إلى الاحتكام إلى القضاة، وعندما يحتاج بالفعل فإن عددًا قليلًا منهم يكفي لأداء المهمة!

قال النعيم وهو يكتفم غيظه.

- حتى لو ظللنا بلا عمل، وجودنا في حد ذاته شيء لا غنى عنه، مثل وجود الطبيب أو المعلم، حتى ولو لم يكن هناك مرضى أو طلاب.

مالَ عمار على النعيم ثم وضع يده على كتفه.

- حسنًا، دعني أحكي لك حكاية العم بلولة مع ملك الموت، إنها من أغرب ما يمكن أن تسمعه في شأن الموت والحياة، ولعل في حكايته عبرة بسيطة. كان هذا البلولة شيخًا سبعينيًا على آخر أيامه، وهبه الله بسطة في الجسم والمال مع قلة في الدين والعقل. عاش غنيًا ومعافىً لكنه كان سفيهاً أيضًا، ولو قلت لك إن الله وضع عقله على رأس ذكره فصدقني.

فحولته التي لم تعرف بلدتنا مثلها منذ أن خلقها الله كانت شيئًا لا يصدق. تزوج في حياته أكثر من عشر نساء، وقد كان موته مُهينًا بين فخذي امرأة وهو على أعتاب الثمانين من العمر. أول امرأة تزوجها هذا البلولة كانت خالّة لأمي اسمها التاية، كانت جميلة وفاتنة وذات حُلُق، جعلها تخرج من دارها عارية ذات صباح لتصرخ في أهل القرية: «لو أن صبرها على هذا البلولة سيدخلها الجنة فإنها تختار الآن جهنم!» ثم قالت فيما قالت: «إنها لم تنم سبعة أيامٍ بلياليها منذ أن دخل عليها، وإن شئنه الضخم ظلّ واقفًا ليل نهار مثل زبر الحديد و...» وهمت أن تكمل بقية ما رأت تحت وطأة ذلك الثور لولا أن جدي استلّ سكينه وأقسم أن يذبحها على مرأى من رجال القرية ونسائها. ثم تزوج البلولة من نساءٍ أخريات، من قرى بعيدة لم يسمعن بحكايته مع التاية. هربنَ كلهنّ وواحدة قتلت نفسها، ثم حكم له القاضي بالبراءة!

ضحك عمار ضحكة رائقة قبل أن يتابع.

- حدثني جازهُ الحاج عوض الله أن المرأة التي تمرّ بقربه تبقى رائحتها أيامًا أخرى في أنفه، وأن لديه وسادة ضخمة خاطها على هيئة ردفٍ امرأة يحشر شئنه فيها إلى أن يبلغ وطره إذا لم يجد واحدةً يطؤها، وأنه بين زيجةٍ وأخرى يقصد مواخير المدينة ويبقى فيها أيامًا قبل أن تستعين العاهرات بالشرطة فتطرده. قال لي أيضًا: إنه سمع كريبًا في داره ذات ليلة فأتاه فزعًا في الصباح. ماذا جرى لك يا بلولة ليلة أمس؟ قال له: إن ملك الموت زاره في الليل وأخبره أنه جاء ليقبض روحه، فماذا يطلب في آخر لحظات حياته؟ قال له إنه يطلب امرأة يضاجعها! قال له أولم تشبع من الزنا يا بلولة؟ قال: والله يا ملك الموت، لو أن روحك النورانية الطاهرة نُفخت في طين جسدي هذا لنكحت نساء الأرض قبلاً ودبراً! ثم ضحك قبل أن يستطرد: لقد استعاذ مني ملك الموت ومضى.

ضحك النعيم ضحكة مكتومة، وتابع عمار حديثه دون أن يكثر لها.

- أعوذ بالله.. أعوذ بالله.. مثل هذا البلولة عاش ردحًا من الزمن يغوي الناس صغارًا وكبارًا. يستلطفه الرجال ويرون في فحولته الزائدة خيباتهم. وتتناقل النساء همسًا. مغامراته

وسوء فعالة معهن أو مع أخريات، وعشنا نحن المراهقين نستلذ بحكاياته وغريب صنيعه.
ماتت امرأة بسببه، ثم حكم له ذلك القاضي العجيب بالبراءة، وسمح له بالزنا على رؤوس
الأشهاد، هل يجوز هذا؟

لم ينبس النعيم بشيء.

- لقد مضى الآن إلى ربه، لكنه قبل أن يمضي هل فكرت يا نعيم كم ذنبًا اقترف ذلك الفاجر؟
كم رجلًا أضل وكم امرأة أغوى وكم مراهقًا فتن؟ لا شك عندي في أن البلولة كان شيطانًا
بقرنين، لكنه لم يجد في من حوله من الرجال والنساء والحكومة من يكلمه عن الله ومن
يردعه باسم الله. هذا ما قصدته تمامًا، ينبغي أن نتعلم من أجل إرضاء خالقنا أولاً، ثم نغير
حياة الناس من حولنا، أليس كذلك؟. هأنت ترى حكومتنا وأحوالها، وترى المجتمع أبعد ما
يكون عن الله وعن دينه. إن القانون الذي لا يحكم باسم الله فإنه كفرٌ بواح ونصرٌ
للشياطين، وإن دورنا أن نحارب تلك الشياطين من أجل الله ولو بالقوة، ولو بالقوة يا نعيم.
علينا أن نسخر أنفسنا لذلك الهدف، وأن نستعد له
من الآن.

صمت قليلاً كأنما يفكر، أو كأنما ينتظر أن تبلغ السهام التي أطلقها أهدافها القريبة والبعيدة،
ثم قال بنبرة ودودة وهو يعصر كف النعيم داخل كفه.

- لعلنا بعد الفراغ من الامتحانات نستطيع أن نناقش الأمر أكثر، مع بعضنا ومع إخوة آخرين
أيضًا خارج أسوار الجامعة، وأرجو تعديني باستعدادك لذلك.

جامله النعيم بكلامٍ طيب، ثم تعذر بعد ذلك بأعذار شتى كي لا يخرج معه أو يلتقي أحدًا
ممن أشار إليهم، لكنه كان يراقب ما يجري. ظل عمار وفتح العليم منمهمكين في إعداد
مشروع كتائب التأديب ووسائل تدريبها وأنواعها، وستتضح له حقيقة أدوارها لاحقًا.

أما صديقه بشرى فقد كان متوجسًا من كل ذلك، وكثيرًا ما عبر عن امتعاضه بكلامٍ مبهم: «أنا خائفٌ من المستقبل يا نعيم»، «هذه نذر شؤمٍ يا نعيم» لكن دون أن يشرح. بشرى كان الصورة النقيضة لعمار داخل التنظيم وخارجه. لقد كان «عاقل المجانين» كما اعتاد النعيم أن يسميه، ولم تخب نظرته فيه، إذ بعد سنوات قليلة من صعودهم إلى السلطة بالقوة، نفض بشرى يده وفارق الجماعة.

٧

كان اسمها الحركي «الكتائب الإستراتيجية»، ومهمتها الأساسية هي التدخل في الحالات الطارئة وغير الطارئة ليتم عن طريق العنف تحقيق ما لا يمكن تحقيقه بالعمل السلمي، هذا ما قاله بشرى أيضًا. كانت تقوم بعمليات التأديب المطلوبة، تأديب الخصوم السياسيين ورجال الأمن والطلاب والأساتذة إذا دعت الحاجة.

كان بشرى يتحدث بكثير من الأسى والامتعاض وهو يحكي للنعيم عن تلك الأيام، وكيف أن هذه الكتائب تسببت في تشويه فكرتهم، ثم أصبحت نواة لما عرف بجيوش المجاهدين التي استخدمها النظام بعد ذلك في حروبه الطويلة مع المتمردين في جنوب السودان ومناطق البلاد الأخرى. وكيف أن دائرة ضيقة داخل التنظيم تضم عمار البركس وآخرين، نظروا لهذا المشروع وعمموه على البلد وفئات الشعب المختلفة، إلى درجة أن أصبح التدريب على القتال وحمل السلاح فرضًا على شرائح واسعة من الشعب، فيهم الطلاب والشيوخ والعمال والوزراء وكبار الموظفين، بل وأصبح جواز المرور إلى الجامعات وفرص التوظيف وارتقاء المناصب. قال النعيم:

- لقد استطاع عمار ومجموعته تحويل هوسهم بالعنف إلى سياسة وطنية يحميها القانون! فقال له بشرى وكأنما يستدرك.

- لقد أبلى عمار وإخوته بلاءً حسنًا في لجم التمرد في الجنوب، لكنهم أيضًا ساهموا في خراب كبير!

في خضم تلك الحمى المجنونة أسر عمار البركس، ثم أعلن لاحقًا أنه مفقود، ثم أضيف لقب الشهيد إلى اسمه، ثم نُسي كأن لم يُخلق. أما فتح العليم جاء برواية أخرى. قال إن عمار تمت تصفيته على يد أحد الضباط. أطلق النار عليه لحظة الانسحاب من أحد المواقع، ثم

تركه سابقًا في دمه قبل أن يغادر بمن تبقى من أفراد الكتيبة. وبنبرة بين الحنق والبكاء
أضاف فتح العليم.

- حزنْتُ كثيرًا لموته على يد آخرين، لقد كنتُ عازمًا على قتله بيدي يا نعيم!

- دعك من هذا يا فتحي واستعد من الشيطان، ماذا تقول إذا أخبرتك أن عمار كان حيًّا إلى
وقتٍ قريبٍ؟

- هذا مستحيل يا نعيم. الذي أبلغني لا يكذب.

صمت النعيم قليلًا.

- لقد كان مستشارًا في الحكومة، ومات في حادثة طائرة بورتسودان منذ أشهر. هل تذكر؟!

نظر إليه فتح العليم نظرة مطولة حائرة ولم ينطق بشيء، ثم قال وهو يمزج كلامه
بضحكة ساخرة.

- مستشار ماذا؟

- صدقًا، لا أعرف.

قال وهو ينظر في عيني فتح العليم، ثم أضاف.

- لم أجد مصدرًا واحدًا يتحدث عن عمله أو وظيفته في الحكومة. مستشار فقط، لكن
مستشار ماذا؟ الله أعلم. لكنه كان يعيش باسمٍ آخر هو تاج الدين.

- لا يا نعيم. عمار البركس مات وشبع موتًا، وأسأل الله أن يكون في جهنم الآن!

أشاح النعيم بوجهه بعيدًا.

- قد لا تصدقني يا فتحي، لكنني رأيتَه بالفعل. عاش في الحي الذي أعيش فيه لعامين كاملين قبل أن تسقط به الطائرة وبيتلعه النهر! أين اختفى عمار بعد سنوات الجامعة؟ ماذا كان يعمل؟ وكيف مات، ثم كيف بُعث فجأة؟ وأين غاصت جثته؟ يكاد عقلي لا يستقر في رأسي مذ رأيتَه، أقسم لك إنه هو، بتلك الندبة المائلة على جبهته من حادثة النشاط الطلابي هل تذكر يا فتحي؟

ثم أضاف بعد صمتٍ قصير.

- منذ أن رأيتك وأنا أقول لنفسي، إن عزلة فتحي وانقطاعه عن الناس لا يمكن أن تكون إلا لأمرٍ عظيم، هل تراني مخطئًا في ظني؟

كأنما قدح النعيم شيئًا في نفس صاحبه بهذا الاستفهام فانفجر. تحدّث عن تفاصيل مُحيرة في علاقته بعمار، وبتنظيم الإسلاميين أيام الدراسة وبعدها. تحدث عن أشياء صعبَ على النعيم تصديقها. لم يتخيل أن شيئًا كهذا يمكن أن يقع، وأن يصل تأثير عمار على من حوله إلى درجة الخطر. ولولا نبرة الصدق التي أحسها في حديث فتح العليم وفي نحيبه المتصل الذي خلط الكلام بالبكاء ما كان ليصدق، ولو أنه سمع الحكاية من آخرين لكذبها دون أدنى شك. قال فتح العليم.

- كدتُ أقتل أُمي بسبب ذلك الملعون وهو اجسه التي بثها كالسم في نفسي ومضى. وبسببٍ آخر لم أقله لأحدٍ من قبل، ولا أعرف حتى الآن كيف حدث، هل كان مصادفةً محضة أم كان امتحانًا من الخالق عز وجل؟ أم ان عمارًا رماه في طريقي ومضى، صدقني لا أعرف، لكنني سأرويهِ لك مثلما وقع دون زيادةٍ أو نقصان. حدث ذلك وأنا في نهاية السنة الأولى في الجامعة. صليتُ الفجر نشيطًا وخرجتُ، قاصدًا مقهىً صغيرًا يقع قريبًا من محيط الجامعة، قلتُ أشرب قهوتي وأراجع بعض دروسي على مهل قبل دخول قاعة الامتحانات، فإذا بجمعٍ من الناس يتحلق حول مكب للقمامة، قريبٍ من داخلية الطالبات. تملكني الفضول فقلتُ ألقى نظرة. كانوا يضحون حين اقتربتُ منهم، بعضهم يلعنُ وبعضهم يستغفر. لكن أول ما وصلتهم رفع أحدهم لفافة قماشٍ مدماة في وجهي، ورأيتُ فيها وجه طفلٍ خديج

يصرخ من الجوع والبرد، ومن جرحٍ في فخذه بسبب نهشة كلب. أول ما رأيته يا نعيم خفق قلبي من الخوف. طفلٌ جميل، بوجهٍ صافٍ وزغبٍ ناعمٍ يرقد على جبهته الصغيرة. لكنني حين نظرتُ إلى بطنه رأيتُ وحمة سوداء حول سُرّته. حتى تلك اللحظة التي رأيتها فيها كنت أظن أنني الوحيد الذي خلق على تلك الحالة. على الفور انتصب أمامي وجه عمار الملعون وهو يبتسم ابتسامة ساخرة وكأنه يقول لي: هل رأيت؟ تحسستُ بطني بأطراف أصابعي، ثم أخفيتُ وجهي وابتعدت. لم آخذ كلامه ذاك مأخذ الجد إلا بعد هذه الحادثة اللعينة فبدأت متاعبي النفسية. كلما تذكرتُ أمي قفز ذلك الطفل أمام عيني لدرجة أنني كرهتُ أن أتذكرها، وأن أتذكر أنها كانت جميلة في صغرها وأني كنت أخجل من ذلك الجمال، وأن شاعرًا لعيثًا من بلدنا كتب في جمالها أغنية أصابت البلد كله بالعدوى، وأصابت أباه وأعمامها بعد ذلك بالحرج والعار، فزوجوها قسرًا لقريبٍ لهم كان أبي. ثم هجس في نفسي أن ذلك الشاعر اللعين اختلى بها وأني كنتُ ثمرة تلك الخلوة، وأن جنينًا مشاغبًا دخل إلى بطن أمي ثم وضع علامةً حول سُرّتي ومضى. لذلك يكرهني أبي ويكره أمي وتكرهني نفسي. ازدادت كوابيس نومي، واضطربت حياتي كلها يا نعيم. قال لي ذلك الخبيث: لا ينبغي أن تفكر الآن في العودة إلى الأهل. ثم سَخَّر طاقتي لشيء آخر. ندرتُ سنواتي التالية له، وعشتُ أفرغ طاقة الحقد التي تملؤني في ذلك العمل حتى استغرقتني. لقد كنتُ المسؤول الفعلي عن معظم حوادث العنف التي جرت في كل الجامعات تقريبًا، هو يخطط وأنا أنفذ دون أن أكلف نفسي عناء التفكير. كنتُ على نحوٍ ما- يده اليمنى، وسلطته الجبارة على كتائب المجاهدين قبل وبعد تخرجي. لم تطلعنا قيادة التنظيم بعزمها الاستيلاء على السلطة، فوجئنا بذلك مثل الآخرين، لكننا ظللنا على أهبة الاستعداد ريثما تحين لحظة غامضة كنا نؤمن بها. اللحظة الحاسمة التي حدثنا عنها شيخنا ذات جمع، كنا نعرف أو صافها «لحظة الفتح والفرج» لكننا لم نكن نعرف ميقاتها. لقد وجدنا مبرراتٍ إضافية لنكمل استعدادنا كأن شيئًا لم يكن. انصرفتُ بكل طاقتي نحو حياة الكرّ والفر. حتى عندما جاءني خبر موت أبي، لم أبك. عشتُ أيامًا أتنازع بين الحزن والاكْتئاب ثم نسيتُ أيضًا وعدتُ إلى ما كنتُ فيه. مرّت سنوات صاخبة بعد ذلك، جاء فتحنا الموعود وتفجرت ثورتنا المباركة، ثم فتحنا معسكرات التدريب تحت سمع وبصر السلطة، وأشعلناها

حربًا لا هوادة فيها. أمضيث ما يقرب من سبعة أعوام متصلة في مسارح العمليات بجنوب البلاد وشرقها وغربها يا نعيم. أنتقل من حملة إلى حملة ومن منطقة لأخرى. كُنا ألويةً متوحشةً من الجنود والمجاهدين، نفتح جبهة ونغلق أخرى، لا شأن لنا غير القتل والمزيد منه، غير الحرق والمزيد منه، غير الدم والمزيد منه. نقتل باسم الله ونحرق باسم الله ونرتكب الفظائع في حق إخواننا في الوطن باسم الله. كُنا نهزم أحيانًا ونحاصر أحيانًا لكننا لم نفقد أبدًا استعدادنا الأبدي للقتل والانتقام، لم نفقد رغبتنا الوحشية في إرضاء الله الذي لم نكن نعلم حقيقة شعوره، إن كان يهتم أساسًا لوجودنا في تلك الأحرار أم أنه غير مبالي. كل ما كُنا نعرفه أننا مجاهدون في سبيله وأن أعداءنا الكفار هم أعداؤه، ولاشك أنه يعدهم الفقر والهلاك ويعدنا الجنة والخلود، ولهذا لم نكن نهتم. المهم، بعد حملة ضارية أبدنا فيها ثلاث بلدات مجتمعة وأحرقناها بحرثها ونسلها، وجدنتي ممتلئة برائحة الموت والدم والحريق، ومشمئزًا منها، ومنكفئًا على نفسي. ما الذي سندركه من كل هذا؟ ما الذي سيعود على الدين من موت هؤلاء العراة والفقراء؟ ما الذي سيكسبه الله من موت هؤلاء الجوعى أو من حرق منازلهم؟ بدأ الشك ينخر عميقًا في ذلك اليقين الملعون الذي لازمني سنوات، ماذا لو كانت إحدى تلك البلدات بلدي؟ ماذا لو أن أحدًا أحرقها باسم الله ثم جلس فوق خرابها؟ عشت شهرًا بعد ذلك أفكر على هذا النحو، حتى حدث أمرٌ مفاجئ غير مجرى حياتي تمامًا. أصابت بعض الشظايا عيني، اقتلعت واحدةً من مكانها وغمست الأخرى في عتمةٍ كئيبة. فقدت بصري تقريبًا، ونُقلت إلى العاصمة الخرطوم لمواصلة العلاج. مكثت في المشفى ما يقرب من ستة أشهر حتى عاد البصر إلى عيني اليسرى بالتدريج مع انقضاء الشهر الخامس، وتم استبدال عيني الأخرى بعينٍ زجاجية مينة. عندها عزمْتُ أن أسقط عن كاهلي هذا الحمل الذي علقه عمار البركس على كتفي ومضى. أول ما خرجت من المشفى وجدنتي سائرًا نحو «محراب المجاهدين» كما كُنا نسميه، سلمت بطاقتي وملابسي العسكرية وكل ما يربطني بتلك الحقبة، حتى شعرتُ وكأنما شفيث من مرضٍ خبيث. خرجتُ إلى الشارع، نظرتُ بعيني الواحدة إلى السماء الرحبة، وتأملت الناس الطيبين في الشوارع، ولمستُ بيدي هاتين جذوع الشجر المنصوبة في الأرصفة. تأملت الطيور وهي تطير وتحط في مرج، وملأت رئتي بالهواء قدر ما تستطيعان، ثم ركبْتُ الحافلة عائدًا إلى

بلدتي. اللحظة التي صعدت فيها إلى الحافلة كانت الحد الفاصل بين حياتي وتلك الحياة التي شعرت لأول مرة أنها غريبة علي. وجددني أعرفني أكثر، وكأنني فقدت ذاكرتي زماناً ثم استعدتها فجأة. أمرٌ واحدٌ فقط، بقي معي في سنوات الحرائق تلك، ورافقني طوال الطريق إلى العاصمة ثم إلى بلدتي، وكذلك بعد وصولي أياماً أخرى. ولعلني كنت في حاجة إلى صدمة تفيقني منه، ولم تتأخر كثيراً.

أصبح عمار البركس أو تاج الدين المستشار شغل النعيم الشاغل بعد أن ودع فتح العليم. راح يخطط لزيارة مكانٍ بعيد، اعتقد أن حياة عمار البركس المبكرة الغامضة نبعت منه، هذه المرحلة كما رآها النعيم هي الأكثر ضبابية في حياة الرجل مقارنة بالمراحل التي تلتها، وهي الأهم كذلك لأنها قد تحمل بعض مفاتيح شخصيته الغريبة. ولعل عمار نفسه لم يتحدث مع أحدٍ بشأنها مطلقًا، إلا أحاديث عابرة لا يمكن أخذها على محمل الجد مثل أحاديثه عن البلولة وشبقة الغريب المقزز.

بعض أوراق الرجل وقعت بين يدي فتح العليم عن طريق المصادفة أيام سكتاهما معًا بداخلية البركس. كانتا نسختين لشهادتي ميلاد، متطابقتين في تاريخ الميلاد (السابع عشر من نوفمبر ١٩٦٣) وفي اسم الأم، لكنهما مختلفتان في بقية المعلومات المدونة عليهما.

قال فتح العليم إنه وجد إحداهما داخل كتاب لسيد قطب، أعطاه إياه عمار رغبةً في تجنيده في صفوف الحركة الإسلامية. والأخرى داخل جيب سترةٍ من الصوف استعارها منه عمار ذات يوم ثم أعادها إليه.

احتفظ فتح العليم بهاتين الورقتين كل ذلك الوقت، وحين جاءت المناسبة تذكرهما وأراهما للنعيم وهو يقول له: إن صورة الشهادة الأولى وتبدو الأقدم مصدرها (مجلس ريفي المناقل بالإقليم الأوسط)، واسم المولود هو أحمد سليمان، واسم الأم سالحة مرزوق. أما الشهادة الثانية فإن صاحبها هو محمد مختار، واسم أمه هو سالحة مرزوق! لكن مكان صدورها غير واضح.

بدا الأمر أكثر التباسًا في ذهن النعيم دراج. إن أحد المستنديين مزور، أو كليهما ربما. وإن عمار عاش بأسماء مختلفة وفقًا لهذين المستنديين أو ربما مستندات أخرى، لكن ما الداعي لذلك؟ مم كان يهرب؟ خطر له أن التطابق في تاريخ الميلاد واسم الأم لا يمكن أن يكون

مصادفة، وقد يكون الشيء الحقيقي الوحيد في كل ما هو معروف عن عمار أو محمد مختار أو أحمد سليمان أو تاج الدين أو أية أسماء أخرى لا يعرفها، وهذا هو الخيط الذي يجب أن يتتبعه حتى النهاية.

انشغل النعيم وقتًا طويلاً يتفحص نسخًا مختلفة من الورقتين، وعرضها على مختصين، ثم ذهب بنفسه إلى مكتب سجل المواليد والوفيات وحاول عن طريق أحد معارفه التحقق منهما لكنه لم يعثر في السجلات الرسمية على أية بيانات تؤكد أيًا منهما.

كان جالسًا أمام مكتب السمسرة العقارية الذي يملكه شقيقه عبد الله. يقلب الأمر في رأسه بعد فشل محاولاته في التحقق من الوثيقتين. كان ينظر ناحية سيارة بيضاء قادمة بمهل، نظرة ثابتة لا مغزى لها حتى توقفت أمامه تمامًا. انتبه عندئذٍ إلى شبح امرأة خلف انعكاس زجاج النافذة الأمامية. دقق أكثر فرأى على وجهها طيف ابتسامة مصطنعة وهي تنزل زجاج النافذة لتكلمه. ثم فوجيء بأنها بثينة أرملة المستشار تاج الدين. قفز من مكانه دون وعي حتى بلغ حافة النافذة التي تجلس خلفها، فضحكت ضحكة خفيفة راقية حين ضرب برأسه الصغير الذي يشبه رأس عصفور حافظها العلوية.

- لقد جئت في وقتك تمامًا!

قال بلهفة، وبارتباك واضح وهو يحك بيده موضع الألم، وأراد أن يقول ما خطر على باله لولا أن الهواء المحبوس في جوف السيارة حمل إليه نفحة عطر صندلي نفاذ، فزاد ارتبأكه أكثر. تلعثم، وتداخلت بضع جمل مبتورة على لسانه، بين الترحيب والثناء والاستفهام والاطمئنان. لاحظت بثينة ذلك فابتسمت ثم قررت أن تحول مسار الحديث إلى اتجاهٍ آخر. جذبت بعض الأوراق من درج السيارة، واستخرجت برفق ملقًا أزرق من بينها.

- تجد في هذا الملف أوراق بيت المرحوم تاج الدين، أرجو أن تجد لي مُشترٍ عاجل ويدفع سعرًا جيدًا ولن أقصر معك.

كانت تكلم شقيقه عبد الله الذي لم يشعر بمجيئه ولا بوقوفه خلفه. استحى النعيم ورجع
خطوتين إلى الوراء. تقدم الرجل وتسلم منها الملف.

- بقية الأوراق سأحضرها فور وجود مشتري.

سلمته نسخًا من مفاتيح البيت ثم أضافت.

- خلّ هذا معك، ورقم هاتفي موجود على ظهر الملف. أنتظر اتصالك في أقرب فرصة.

- مهلاً.

قال النعيم، ثم اقترب من نافذتها وبدأ يكلمها بصوت خفيض.

- هل يمكنني أن أسألك عن أمرٍ خاص؟

-؟

- زوجك الراحل تاج الدين؟!

فزّعت.

-؟

- من أي بلدٍ هو؟ أقصد من أي مدينة في السودان؟

ارتبكت.

- ولماذا تسأل؟

- مجرد فضول.

صمتت قليلاً وهي تتأمل الساحة أمامها، ثم قالت.

- من مدينة ود مدني.

- من أي حي فيها؟

- لا أعرف.. صدقًا لا أعرف..

ثم رفعت زجاج النافذة وغادرت دون أن تستأذنه. تابع النعيم سيارتها خلال سحابة الغبار التي أثارتها، ثم وهي تعبر جسرًا صغيرًا قائمًا فوق مجرى عميقٍ لتصرف مياه الأمطار وتنعطف منه ناحية الشارع الكبير وتختفي.

قفز من مكانه. خطف الملف ومفاتيح البيت من بين يدي شقيقه عبد الله. ألقى على الملف نظرة سريعة متلهفة. لم يجد ما كان يبحث عنه، كانت أوراقًا تثبت ملكية المنزل وحسب، لكنها عبارة عن نسخ غير أصلية. قرأ اسم تاج الدين كاملاً ووظيفته على أوراق البيت (الاسم: تاج الدين آدم عمارا - المهنة: مستشار) نقل بصره من الملف ناحية بيت تاج الدين الشاهق، الساكن على الضفة الأخرى من الساحة، ثم إلى كومة المفاتيح في كفه وهو يهزها هزة خفيفة وكأنه يزنها. ألقى نظرة أخيرة مطولة ناحية البيت وخطر له أن يفعل شيئًا. نظر إلى ساعته، وفكر أن منتصف النهار وقت مناسبٌ لإلقاء نظرة سريعة. استأذن شقيقه ثم اتجه ناحية البيت بخطوات سريعة، متحفزة.

البيت كبير ومستدير البناء من الداخل، محاط بحديقة واسعة، ذُبل عشبها ونباتاتها المتسلقة، وامتلات بأكوام من الأوراق الجافة والبذور الصفراء. ثمة زواحف كثيرة هُرعت إلى مخابئها حين أَحسَّت بوقع خطواته على العشب الجاف، فأحدثت خشخشةً عالية وسط الأوراق المتقصفة وهي تهرب في كل اتجاه.

أخذ دورة كاملة حول صحن المنزل المستدير، لم يلحظ شيئًا ذا أهمية. أكمل دورته حول المنزل ثم أدار المفتاح في الباب الخشبي الكبير ودلف إلى الداخل. جال ببصره في أرجاء الصالون الواسع ذي السقف البعيد، كان خاليًا تمامًا إلا من مقعدٍ خشبي كبير من ذلك النوع الذي يستخدم في الحدائق، مُلقًى فوق سجادة صغيرة مغبرة، ولا شيء آخر سوى ستائر شفافة متسخة، كانت مسدلة على نافذة كبيرة تحتل نصف الجدار المقوس إلى يمينه.

ترك الباب الذي دخل منه مفتوحًا ثم عبر فضاء الصالون نحو الباب المقابل الذي يقود إلى الجانب الآخر من البيت. كانت صالة واسعة مستديرة، تفتح عليها جميع الغرف العلوية والسفلية. يربطها بالأعلى سلم مقوس يبدأ من منتصفها تقريبًا وينتهي إلى صالة أخرى في الأعلى. ألقى من خلال الحاجز الزجاجي نظرة سريعة على الحديقة الذابلة في الخارج، ثم ارتقى السلم نحو الغرف العلوية الموصدة. أربع غرف فتحها واحدة تلو الأخرى، لم يجد فيها سوى بعض الأثاث التالف المتناثر هنا وهناك، كأن أحدًا عبث بها. إحدى الغرف كانت واسعة أكثر من غيرها، ولها باب آخر يفتح على شرفة واسعة مطلّة على الحديقة، ويقوم على أحد أركانها سلم ملتصق بظهر الغرف ويقود إلى الطابق الثالث ومنه إلى السطح.

صعد النعيم السلم الصغير متحفزًا حتى أشرف على الباب الكبير الذي يقوده إلى الطابق الثالث. وجده موصدًا، جرب المفاتيح التي بين يديه لكن أيًا منها لم يناسب قفله القديم الصديء. تركه وتابع صعوده إلى سطح المنزل. ثمة غرفة جديدة وحيدة تقبع في منتصف

السطح تمامًا، زرقاء بلون السماء، سقفها مسطحٌ ومائل، الجهة التي يقع عليها الباب أقصر بكثير من الجهة المقابلة. أخذ النعيم دورة كاملة حول الغرفة التي بلا نوافذ، ثم دفع الباب ودخل. أول ما أضاء نور الغرفة ارتعد النعيم لمرأى تاج الدين بابتسامته الغامضة وشاربه الكث، وبشعره الكثيف المسدل على كتفيه. كان واقفًا داخل صورة مؤطرة ضخمة، يرتدي بدلة بيضاء لها ذيل طويل يكاد يلامس الأرض. الصورة تحتل جزءًا كبيرًا من الحائط المقابل لباب الغرفة. أما على الحائط المجاور أبصر مرآة كبيرة بحجم صورة تاج الدين تقريبًا، مؤطرة أيضًا بإطار ذهبي سميك لكن مكانها على الحائط وطيء وغريب بعض الشيء، وحين وقف النعيم ليرى وجهه فيها لم يستطع، بالكاد رأى صدره. هل كان تاج الدين قصيرًا إلى هذا الحد؟

أخذ نفسًا عميقًا ثم راح يتأمل الغرفة. ضيقة نوعًا ما، حوائطها مزخرفة بالكامل بفسيفساء دقيقة باللون الأزرق، بدرجاته المختلفة. ثمة صناديق فارغة من الكرتون مبعثرة في أرضية الغرفة المتربة بشكل عشوائي، وما بدا أنه خزانة للكتب كان فارغًا ومفتوح المصراعين، تقبع تحته طاولة صغيرة مع مقعد من الخيزران، لا شيء آخر في الغرفة يمكن أن يثير الانتباه.

دار حول الطاولة والكرسي مرتين، ثم جلس عليهما، عندها رأى هيئته كاملة على المرآة. خطر له أن تاج الدين كان يقضي أوقاتًا طويلة في هذا المكان، يتأمل انعكاس صورته على المرآة أو يقرأ أو يفعل أي شيء. بقايا الشمع الكثيرة التي تغطي سطح الطاولة ربما كانت دليلًا على السهر الطويل وربما القراءة في أوقات انقطاع الكهرباء. نظر أسفل الطاولة فأبصر طرفًا من كتابٍ قديم، سحبه برفق ونفض عنه الغبار. كان نسخةً من رواية إنجليزية قديمة صادرة في العام ١٨٨٦ لـ «روبرت ستيفنسون» وعنوانها «القضية الغربية للدكتور جيكل والسيد هايد»، وفي الصفحة الأولى التي تلي الغلاف مباشرة، وجد مكتوبًا بخط إنجليزي أنيق حروفًا إنجليزية مفردة، ثم في السطر التالي مكتبة بورتسودان ٢٦ فبراير ١٩٨٣. وقف النعيم طويلًا عند الأحرف الإنجليزية، وحاول أن يقرأها مجتمعة لكنها لم تكن

تشكل كلمة ذات معنى. رجّح أن تكون اختصارًا لاسم، حاول أيضًا أن يخمن ماذا كان لكنه فشل وأرجأ ذلك إلى وقت لاحق.

كانت صفحات الكتاب قديمة ومهترئة. راح يقلبها برفق، ثمة هوامش وحواشي وملاحظات كثيرة مكتوبة بقلم الرصاص في عدة مواضع من الرواية الصغيرة. عند الجملة التالية مثلًا وضع قوسين كبيرين ورسم داخله بقلم الرصاص وجهًا رمزيًا ذا ابتسامة مائلة، ساخرة «ثمة شيء فيه أقرب إلى سكان الكهوف؟ هل من الممكن أن تتكرر القصة القديمة للدكتور فل؟ أم أنه محض إشعاع من روح دنسة يتنقل على هذا النحو عبر عفة الصلصال متقمصًا مختلف أشكاله؟، إنني أرجح الاحتمال الأخير!». ثم إلى جوار الوجه المرسوم وبحروف عربية دقيقة «التقمص حالات عدة معقدة التكوين والتحول، لا حالة واحدة متعددة الأشكال».

وفي صفحة أخرى كانت هذه العبارات «... كان ثمة كتاب مفتوح، دهش آترسون عندما وجد فيه نسخة من عمل ديني، كان جيكل قد أعرب حياله مرات عدة عن وافر تبجيله، وقد علق عليه بالحواشي، مدونةً بخط يده، ملأى بتجديفات رهيبة.» وقرأ النعيم على الهامش الأيسر تعليقًا مقتضبًا بالإنجليزية وبحروف كبيرة (لعل هذه من الأمور التي لم تجب عليها معظم الأديان بشكل واضح، هل خُلقتنا جميعًا دفعة واحدة أم أننا جننا عن طريق التناسل؟!).

شحذت التعليقات والحواشي ذهن النعيم إلى أقصى حد، وخاصةً ذلك التباين الغريب في كتابته بين اللغتين العربية والإنجليزية. الأولى صغيرة دقيقة ومتداخلة والثانية كبيرة وواضحة، لم يفهم المغزى من ذلك، وما إذا كان الذي يكتب شخصًا واحدًا أم أنه أكثر من شخص. ترك الأمر في ذهنه وواصل تقليب صفحات الرواية بطريقة سريعة قلقة، ينتقل من هامش إلى آخر، ومن خط طويل تحت جملة من الجمل إلى آخر سميك تحت كلمة واحدة، إلى دائرة واسعة حول فقرة كاملة من فقرات الرواية، حتى فوجئ بورقة مطوية إلى طيتين اثنتين داخل إحدى الصفحات. وضع الرواية جانبًا وفتحها بشغف. لم يستطع أن

يقرأ ما كان مكتوبًا عليها بسهولة، كان الخط العربي فيها دقيقًا وصغيرًا إلى درجة مرهقة، حوّل النص كله إلى ما يشبه الطلاسم. وضعها في جيبه وقرر أن يؤجل موضوع قراءتها إلى وقت آخر.

عاد إلى الرواية من جديد، وتوقف مرةً أخرى عند شهادة الدكتور جيكل في نهاية الرواية «حقيقة أن الإنسان ليس بشخصٍ واحدٍ حقًا، إنما هو في الحقيقة شخصان اثنان. أقول اثنان لأن حال معرفتي لم تتخطَ حدود تلك النقطة. سيعقبني أشخاص آخرون، وسيتجاوزني آخرون في المضمار ذاته، وسأجازف أنا بهذا الافتراض: إن الإنسان سيُعرّف لاحقًا، تعريفًا مطلقًا في النهاية بأنه محض هيكل يقطنه سكان متنوعون ومتنافرون ومستقلون!». ثم انتبه النعيم إلى دائرة صغيرة مرسومة في الهامش بخطوط كثيفة متداخلة وفي قلبها نقطة سوداء داكنة وتحتها ثلاثة خطوط ثم عبارة واضحة بالعربية (هذا هو).

وفي الصفحة التالية كان مكتوبًا على لسان الدكتور جيكل «لكنني وفي مسار حياتي التي كانت بعد كل هذا العمر، حياةً تسعة أعشارها كُرس للجهد والفضيلة وضبط الأهواء، لم أجرب الشر إلا قليلًا،

ولم أستهلك طاقته إلا الأقل». فوق هذه الفقرة كان مرسومًا وجه رمزي محايد، لكنه أقرب ما يكون إلى الاستياء منه إلى الحياد حين دقق النعيم في تفاصيله. الخط الذي يُعبّر عن رسم الفم كان مائلًا قليلًا إلى الأعلى.

أغلق الكتاب، ثم اقترب بخطواتٍ حذرةٍ من الصورة المعلقة على الجدار. وقف لبرهة يتأمل تفاصيلها. الشعر المزيف متقن التصفيف. أسيب متموج، فاحم السواد مع خصلاتٍ بيضاء تشق سواده مثل ضربات ريشة. العينان تموران كعادتهما. بالغموض، وخُيل للنعيم أنهما تنطقان بشيء. اقترب أكثر ثم تحسس إطار الصورة، إنه عريض وخشن الملمس، ومزخرف زخرفة ذهبية غير متناسقة. الواجهة مغطاة بزجاج ثقيل من النوع الرخيص. مرر عليه أصابعه بحذر ثم نفضها من الغبار. راح يختبر ثباتها على الحائط. كانت ثقيلة جدًا. جذبها

قليلاً نحو الأمام فلم تستجب، سحبها بمحاذاة الجدار- ناحية اليمين واليسار فتحررت ببطء. استجمع قوته ثم دفعها ناحية اليمين إلى الحد الأقصى حتى مالت صورة تاج الدين وخطر له أنه سوف يسقط من إطار الصورة على رأسه. ظهر ما يشبه باب صندوق صغير على الحائط. أعاد الصورة إلى وضعها ثم جاء بمقعد الطاولة وصعد عليه فتمكن من إزاحة الصورة. فتح باب الصندوق برفق. ثمة ملف أخضر كبير الحجم. سحبه بحذر، كان ثقيلًا ومكتنًا بالأوراق والمستندات. جلس على الأرض يتفحصها. بعضها حقيقي ومرعب، وبعضها الآخر عبارة عن نسخ مصورة. كانت وثائق كثيرة لبوليصات شحن وتحويلات بنكية وصور وأوراق حكومية موقعة ومختومة. أفرغ كل ما وجده داخل كيس وجده في الجوار، خبأه جيدًا داخل قميصه ثم أعاد الصورة إلى مكانها وخرج.

النهر، الساعة ٠٧:٢٩ ص

أبعدني التيار كثيرًا عن مكان السقوط الأول، لكن القطعة المعدنية لا تزال صامدة، تحتل جثتي الضخمة على الرغم من تشعبها بالماء. الماء هنا كثيف ومعتم، والموج يرتفع ويحط مثل أرجوحة عملاقة. هدير الماء يطغى على الأصوات التي تأتيني من بعيد. أراهم هناك مثل جيش من النمل. أسمع أصواتهم مثل ضجيج مخنوق. أرى آليات تتحرك على الشط. أسمع صوت جلبة بعيدة. يقترب صوت هادر، أنظر إلى الأعلى، تعبر من فوق مروحية مسرعة، وتعبّر أخرى. لا يروني، أصرخ فيهم، أنادي عليهم، على أحد ما، لكن صوتي لا يغادر حلقي. فمي فقد قدرته على النطق. عقلي لا يزال صافيًا.

جسدي خفيف، طاف فوق الماء مثل تمساح عجوز. لا يريد النهر أن يبتلعه. يتلأ. كما لو أنه قرر أن يلعب معه لعبة ثقيلة. حسنا سأشاركه اللعبة، لا خيار آخر. هذه الدقائق التي تلت السقوط تبدو أطول من كل ما عشتها قبلها. في هذه الدقائق القليلة استرجعت حيواتي كلها. مرّ عليّ الشريط الطويل مرةً واثنين وثلاث، ثم لا تزال في الدقائق بقية، لا يزال في العمر رمق. ما أعجب هذه الحياة. ألا تكفي المرء حياة واحدة؟ تطول أو تقصر، أليست نصيبه العادل؟ هي حياته على كل حال، لن تشبه غيرها ولن تحل محلها حياة

أخرى. فما باله يستعير حياةً لا تخصه؟ بل حيوات كثيرة متناقضة؟ لعله فقط، أراد أن يلعب لعبة، ونسي في غمرة النشوة أن قدرته محدودة، وأن الروح قوة غامضة، وأن الجسد محض غمدٍ بئس. آآه.. لو كان الدكتور جيكل يعرف هذه الحكمة لما تورط في القتل والشر، ولما سمح لروح السيد هايد أن ترتكب تلك الفظائع الصادمة وتدمر حياته الأخرى المثالية، وأنا كذلك. كنت خائفاً على الدوام. الخوف هو ورطتي الأبدية.

الحكمة التي خرجتُ بها من كل ما حدث هي أن الروح لا تُحاط ولا تخضع. إنها مارِدٌ عظيم، تعجزه الأجساد بقدراتها المحدودة. مسكينٌ هذا الجسد، كلما حاول التفوق على نفسه لإخضاعها، كلما ارتكب حماقاتٍ عظيمة. ما تريده الروح طوال رحلتها الأبدية تدركه عبر هذه الرحلة نفسها، من خلال حيواتٍ عدة وأجسادٍ كثيرة تمرّ عليها. الجسد الذي يحاول أن يحقق ذلك في حياة واحدة يبدو مثل حصانٍ أحمق يحاول جرّ قطارٍ أو سحبَ جبلٍ من مكانه. أدرك الآن هذه الحكمة بعقلي فقط، لكن بقية حواسي معطلة، قوتي عاجزة، والنهر اللعين يسخر منها ومني، ومن هذه القطعة المعدنية التي بدأت تذوب تحت ثقل هذه الجثة اللعينة.

لم يتصور النعيم دَرَجَ مطلقًا. أن يتحول عجزه المزمّن إلى قدرة كاملة، قدرة بائنة لها دلائل وشواهد لم تخطئها حواسه المعطوبة في تلك الليلة. إنه ذلك العجز اللعين الذي لازمه سنواتٍ طويلة، وتسبب في انهيار زواجه وانتهاء قصة حبه الأسطورية كما كان يصفها. مع المحامية الجميلة وزميلة الدراسة غادة. بل وسبب له عقدة أبدية من جنس النساء. حتى إنصاف، جارتها اللعوب سخرت منه حين لم تَرَ فيه ما اعتادت أن تراه في الرجال. عَوَجَتْ فمها وقالت له.

- الله يسامحك يا مولانا، ظننتك تحمل مفتاحًا من حديد!

ثم بصقت على الأرض وتلقّعت ثوبها وخرجت غاضبة.

لم يكن بالنعيم مَسّ من جنون أو هوسٌ بجنس النساء حتى يقترب من وَاحِدَةٍ مثل إنصاف، لكنها الرغبة التي لم تُختبر إلا مع امرأةٍ واحدة، طلبت الطلاق بعد سبعة أعوام من الصبر والستر، فقصد إنصاف وأغراها بالمال. حاول طمأننتها بأنه يود أن يجرب وحسب، ثم ملأته بالحسرة ومضت. لم يتصور أن حالة اليأس العريضة التي لازمته وجثمت على شبابه نحو عقدين ونيفٍ من الزمن تحولت فجأةً إلى شيءٍ آخر ملأه بالأمل. أخبر طبيبه الخاص بما جرى في تلك الليلة، أثناء حضوره حفل زفاف في قرية المسعودية التي تقع جنوب الخرطوم بأميالٍ قليلة. لم ينس أدق تفاصيل تلك الليلة من كثرة ما أعادها في ذهنه. لم ينس زينب السمراء الممتلئة وهي تضع له وللعريس الحناء على يديهما. لم ينس سوسن ذات الساقين البرونزيتين والأرداف العالية، لم ينس حَرَمَ ووجهها المستدير وشفاهها المكتنزة. لم ينس أيضًا فاطمة وجسدها الناعم البض وقد ضغط صدرها الكبير على ظهره، وعلّق عطرها الصاخب بأنفه الصغير حتى التهبت حرارته وتدفق الدم إلى كل جسده في لحظة واحدة، وانتصب شيئه بعد طول رقاد. وحين كان الرجال يُبشرون ويهزون بالفرح

فوق رأسه لم يكن يستطيع الوقوف على قدميه كما يجب، كان ذلك الشيء اللئيم يسحبه نحو الأسفل. من ينقذ النعيم من هذا الغرق اللذيذ؟ من ينتشله من هذا الطوفان الأثوي الذي لم يحسه قبل هذا قط؟ كنّ أربع نساء أحطنَ به وبالعريس جمال في ليلة الحناء، ثم دوّخنه بعطورهنّ الخُمريّة النفاذة وأجسادهنّ المستديرة الشهية. كان النعيم دراج سعيدًا، وفي لهفةٍ لا اختبار مفتاحه الصدى أكثر من العريس جمال نفسه، الذي تهيأ لهذه الليلة أشهرًا طويلة.

تمنى دراج أن ترى عادة أو حتى إنصاف التي احتقرته يومًا ما. ما يحدث في هذه اللحظة النادرة. انتظر النعيم صباح اليوم التالي على مضض، وحين طلعت الشمس اعتذر من صديقه العريس وحمل حقيبتَه قاصدًا الخرطوم دونما إبطاء. كان الدم يسري دافقًا في عروقه وأطرافه بعد طول جمود، وكان قلبه ينبض بخفة، وبرشاقة طفولية فرحة، وعطرُ فاطمة عالقٌ بأنفه وخياله وكذلك في رأس عضوه. كلما قفز مشهد حفلة الحناء إلى ذهنه قفز ذلك الشيء بين رجليه المحشورتين بين مقاعد الحافلة، لكنه كان سعيدًا سعادة تجلّ عن الوصف.

اقتربت الحافلة من أطراف الخرطوم، وزحمت أنف النعيم رائحة كمائن الطوب وروائح عوادم السيارات والغبار. حاول أن يستدعي عطر فاطمة فلم يُفلح، واستدعى هيئة سوسن وصدر زينب لكن دون جدوى، تجمد الدم في عروقه وعاد قلبه إلى خفقاته الخرقاء، ولم ينبض ذلك اللئيم أو يقف احترامًا لهذه الذكرى. عندما أخبر طبيبه بذلك ضحك الدكتور خليل وهو يمازحه.

- لعله ينبغي أن تترك شيئك هذا خارج الخرطوم، وتأتينا من دونه يا مولانا!

وضحك النعيم أيضًا، لكنه كان يبحث عن حجة مقنعة. حاول الطبيب أن يقنعه بأن ما حدث معه لا يمكن إلا أن يكون أمرًا جيدًا، ومن الممكن تعزيزه ببعض التمارين النفسية والذهنية وكذلك ببعض الأدوية الضرورية، لكن لا علاقة للجغرافيا بما يحدث معه البتة، حتى لو تكرر الأمر مراتٍ عدة. كتب له بعض الأدوية ثم أتبع ذلك بإرشادات ونصائح كثيرة.

لم يكن النعيم في كامل انتباهه لما يقوله الدكتور خليل، كانت خيالات زينب وحرم وسوسن وفاطمة وغيرهن تحوم أمام ناظريه، لكن دون أن يتمدد عضوه سنتيمترًا واحدًا. لمس يده لمسةً خاطفة وهو يخرج من عند الطبيب، ثم عدل هيئة بنطاله وخرج مستاءً.

لعن في سره خرطوم الجن كما اعتاد أن يسميها. لعن جنس النساء، ولعن أكثر شئنه الخائب وعجزه المبين المهين. كان يمشي في شارع الحوادث الضيق الذي يكتظ بعيادات الأطباء، وتغطي واجهة أبنيته لافتات متزاحمة تحمل أسماءهم وصفاتهم، وعناوين الجامعات والشهادات التي نالوها بالحق أو الباطل، ثم انعطف بعد ذلك ناحية شارع القصر المؤدي إلى سرايا الرئاسة. كان يتطلع إلى نساء سائرات في الشارع، ويحاول أن يختبر من جديد إحساسه بهن. شحذ ذهنه بأوضاع حميمة مع كل واحدة منهن، التي تسير أمامه وهي تخرج رديها والتي تقابله من أمام وهي تهز صدرها، تخيلهن جميعًا في أوضاع مختلفة، وتخيل نفسه معهن في مشاهد ساخنة، لكن دمه ظل باردًا كما عهده.

انتهى به المسير إلى حديقة صغيرة مقابلة لمدخل القصر الجمهوري من جهة الجنوب. جلس على مقعد خشبي مقابل للبوابة، يتأمل القصر الأبيض. إنه مبنى عتيق مضى على إنشائه نحو مائة وخمسين عامًا، سكنه وقتل فيه الحاكم البريطاني غوردون باشا على يد الثوار المهديين أواخر القرن التاسع عشر، ثم توالى عليه الحكام الإنجليز بعد إعادة احتلال البلاد وحتى خروجهم مطلع العام ١٩٥٦، ومن بعدهم أيضًا الحكام الوطنيون.

هذا هو المكان الذي بلغه عمار البركس وأدى فيه قسم الولاء لساكنه العتيد. إلى هنا حملته أحلامه ونزعاته الغريبة. هل لمثل هذه الغاية تبدلت شخصياته وحملت أسماء وصفات عدة؟

خطر له فتح العليم، بحزنه، وكآبته التي خرج بها من صحبة الرجل: «لا أعرف كيف يمكن أن يسيطر على تفكيرك شخص ما بتلك الطريقة الميغناطيسية إن لم يكن شيطانًا، ثم يدفعك دفعًا إلى ما تريد وما لا تريد من غير تفكير. وقفتُ أمام أمي ذلك اليوم المشؤوم، ثم قلتُ في وجهها كلامًا أستحي أن أعيده في ذهني ناهيك أن أقوله لك، فاختنقتُ

المسكينة من هول الصدمة حتى انعقد لسانها، ولم تنطق بعدها أبدًا يا نعيم، ولو أنها ماتت لما سامحت نفسي. إنها تحاول أن تشكوني لكل من تراه، لذلك كانت تتطلع إليك بتلك الطريقة وتحاول أن تكلمك. إنني اليوم أقضي ما بقي من عمري إلى جوارها كفارةً لذلك الذنب الذي لا يُغتفر. أثرُ عمار على حياتي كان كارثيًا ولا يمكن التعافي منه بسهولة. لقد وضع في يدي سيفًا ثم دفعني إلى أتون معركة طويلة لا تخصني، ولم أنتبه إلى المأساة إلا حين نَبأ سيفي، وعندما نظرتُ خلفي لم أرَ غير عتمةٍ شاملة، فعدتُ وحيدًا». «لن تتخيل يا نعيم أن هذا الملعون وصلت به الجرأة أن يقتل بعض المشردين الذين تمتلئ بهم مجارير العاصمة وخراباتها المهجورة بوجبات مسمومة، وحين تُرثُ في وجهه قال ببرود: إنه يساهم في ظهور البلد من النجاسة. ضحك ساخرًا من حنقي على فعلته وقال:

- لا يستحق الأمر كل هذا الوجوم يا صديقي. مجرد كلاب ضالة وُلدت وعاشت في المزابل ثم لقيت حتفها. هل تظن أن أحدًا سيهتم لموتها؟

كان يظن أن جميع المشردين أبناء سفاح، لفظتهم أمهاتهم إلى طرق العاصمة وأزقتها. كان مزهواً بما فعل:

- نقصَ أولاد الحرام في البلد ثلاثة وعشرين!»

طاف بخاطر النعيم أيضًا ما قاله عمار في ليلة المكتبة: «لم أهتم يومًا يا نعيم لما كنتُ عليه، ذلك أمر مضي ولن يفيدني استرجاعه أو التفكير فيه شيئًا، كما أنني لا أهتم بكل أولئك الذين قابلتهم أو غادرتهم. إنني أسير ضمن قافلة لا تهتم بما خلفته وراءها، بل تحسب الزاد والوقت والمسافة إلى وجهتها التالية، ثم تنضم تلك الوجهة المقبلة إلى ما سبقها. إن كل الأماكن والأشخاص في طريق القافلة هي مجرد علامات للعبور، إنها جزء من خط سيرها الطويل نحو غاياتها، لكنها ليست الغاية ذاتها. حتى أعضاء القافلة يتبدلون في كل محطة وفي كل رحلة فلا ينشغل ذهني بهم أبدًا، وبالأماكن التي صعدوا منها أو نزلوا بها. أهتم لما أود أن أكونه وما يسعني أن أدركه. أنا القافلة وأنا الوجهة وأنا الحادي وأنا المسيرُ نفسه».

أما بشرى فلم يكن مدرّجًا لنزعات إخوته وحدود طموحاتهم. ما كان يتصور أن الطريق إلى الله محفوفٌ بشهوة السلطة وإراقة الدم. في المرات القليلة التي تحدث فيها مع عمار البرّكس لم يكن يشغله غير ذلك الخوف على مصير الإخوة ودعوتهم، لكن عمار كان دائم السخرية من بشرى وأمثاله، كان يسميهم الديدان النبيلة. «وجود هؤلاء مهمٌ لحركتنا، إنهم بزحفهم الرتيب هذا، والتفافهم حول أولئك الرجال الميّتين إنما يسمّدون الأرض ويملاؤها بالخصب، ويحقنونها بتلك البكتيريا النافعة. غدًا ستنبث وتشمخ الشجرة المباركة، بفضل الله وبفضلهم. إنهم الديدان النبيلة التي تمدّها بالعفن الطيب، العفن الضروري لحياتها. ذلك دورهم منذ قرون طويلة».

عاد اسم المستشار تاج الدين إلى الواجهة من جديد. حملت واحدة من صحف الصباح صورته إلى جانب صورة الوزير جلال الدين. ثمة ما يشبه تحقيقًا صحفيًا حول صفقة مشبوهة للتقريب عن الذهب في جبال البحر الأحمر مع شركة أجنبية. لَمَح التحقيق أيضًا إلى أن الشركة الأجنبية المزعومة شركة وهمية لا وجود لها في بلدها الأم. ثمة اتهامات مبطنة لتاج الدين وجلال الدين باستغلال معدات ومواد تنقيب منتهية الصلاحية على حساب الدولة.

كان النعيم درّاج يرتشف قهوة الصباح في مقهى يقع بوسط الخرطوم حين طالع ذلك في الصحيفة. بدا له الأمر مريبًا ومربكًا. كأن أحدًا ما يستبق أو يتوقع شيئًا. طوى الصحيفة وحشرها في حقيبته بعناية إلى جوار الملف الأخضر اللعين. منذ أن عثر على هذا الملف انقلبت حياته رأسًا على عقب، ينام وهو تحت رأسه، يستيقظ وهو تحت إبطه وملء تفكيره. يبتعد ويقترب منه بحسب الأحوال، إذا كانت حسنة وهادئة فإنه يبقى في معيته، وإذا ساءت (كأن تقوم حملات اعتقال أو تحقيقات) فإنه يخبئه في أماكن لا تخطر ببال أحد. لكن الأحوال هادئة هذه الأيام هكذا قدر الأمور، وحدث نفسه بأنها فرصة لكي يطلع على محتواه بعناية، ويقارن الأسماء والتواريخ ويتحقق من بعض المعلومات والعناوين. لقد أصبح هذا الملف شغله الشاغل منذ أن تعثر به. استطاع خلال أسابيع قليلة أن يربط بعض الخيوط ببعضها ويتوصل إلى استنتاجات مرعبة، كلما فكر فيها ملأته بالخوف من كل شيء، فالتحقيق المريب الذي نشرته الصحيفة هذا الصباح ملأه بخوف أكبر، وبدأ يفكر مليًا في مكان آمن يخبئ فيه الملف حتى يقضي الله أمرًا.

خرج حذرًا من المقهى وهو يعصر الحقيبة تحت إبطه عصرًا. كان وجهته التالية مختبرًا في وسط الخرطوم لتسليم عينات فحص طلبها الدكتور خليل في آخر زيارة. هاتفه شقيقه السمسار عبد الله ليخبره أن مجموعة من رجال الأمن قاموا بتفتيش قصر المستشار تاج

الدين فجر هذا اليوم. أخبره أيضًا أنهم اقتادوه إلى مكان مجهول، وخضع لتحقيق سريع. سألوه عنه (عن النعيم) وعن أوراق مهمة تخص أشخاصًا مهمين.

- كأنهم يبحثون عن شيءٍ بعينه، لكنهم لم يفصحوا عنه!

هكذا ختم حديثه، لكن النعيم لم يستطرد معه في الكلام. كان عقله مشغولًا في البحث عن مكان آمن لحقيبته. رنَّ هاتفه مجددًا. إنه أحد رفاقه في اتحاد المفصولين من الخدمة العامة. أبلغه بأخبار اعتقالات مفاجئة. خمسة من أعضاء اتحاد المفصولين اقتيدوا في الليلة الماضية إلى جهةٍ غير معلومة، ولا زال الأمن يبحث عنه. نصحه بالاختباء ريثما تمر العاصفة ثم أغلق الهاتف. وقف حائرًا لا يعرف ما يصنع في هذا الصباح النكد. تحسس حقيبته بذهنٍ شارد.

قرر على الفور أن يبتعد عن كل الأماكن المألوفة التي يرتادها والتي يمكن لرجال الأمن أن يجده فيها. قرر أن يذهب إلى صديقٍ قديم غير معروف لرجال الأمن، يسكن في ضاحية الكلاكلة البعيدة. ضمَّ حقيبته إلى صدره ثم توكل على الله وصعد إلى الحافلة وهو يشعر بالاطمئنان لصواب قراره.

وصل وجهته بعد طول تلملٍ، لكنه لم يجد ذلك الصديق. أبلغته زوجته أنه ذهب إلى ولاية الجزيرة لأداء واجب العزاء في أحد أقاربه. قصد صديقًا آخر يقع منزله قريبًا من الأول لكنه لم يجده، هو الآخر مُختفٍ منذ أربعة أيام ولا يعلم حتى أولاده الوجهة التي ذهب إليها. قضى نهاره كله في محطة الحافلات الرئيسية بمنطقة الكلاكلة. من بائعة شاي إلى أخرى. يقرأ. يمازحهن. يثرثر معهن. يتأمل فوضى السوق وجلبته الصاخبة، لكن دون أن يغفل عن الحقيبة المعلقة على كتفه. شعر بضيقٍ في صدره آخر النهار، فقرر أن يغادر المكان إلى أي وجهة. اقترب من حافلة كان سائقها ينادي بصوتٍ رتيب «ود كامل.. ود كامل».

- كم نحتاج من الوقت لنصل؟

قال النعيم، فأجابه السائق دون أن ينظر إليه.

- ساعة تقريبًا.

صعد النعيم، وجلس إلى جوار النافذة، قريبًا من الباب. وعلى الفور قفز إلى ذهنه كامل. رجلٌ مرح، كان يعمل فَرَّاشًا وصانع شاي وقهوة في محكمة الخرطوم جنوب حيث عمل النعيم قاضيًا بها قبل أن تحيله الحكومة إلى الصالح العام. انتصبت أمامه قامة كامل القصيرة، بوجهه الممصوح، وبأسنانه السوداء المتآكلة وبشرته الصفراء المجعّدة وهو يصيح «أنا كامل من ود كامل.. ما يعرف أكذب وما يعرف أجامل».

ضحك في سره لهذه الذكرى المرححة ثم دعا أن يكون الرجل حيًا. ود كامل قرية صغيرة تقع على النيل الأبيض جنوبي الخرطوم، لم يزرها النعيم، ولا يعرف طريقها قبل اليوم، لكن للظروف أحكامها.

انطلقت الحافلة بعد أن امتلأت بالركاب، أغلبهم من العمال المكودين. رائحة العرق والتعب آخر النهار ملأت جو الحافلة حتى أصابته بالاختناق. مال برأسه ناحية النافذة وعبّ هواءً نقيًا حتى ملأ رئتيه، ومع ازدياد سرعة الحافلة تحرك الهواء في داخلها وتغيّرت رائحتها بالتدريج. شعر بخدرٍ لذيذٍ في أطرافه. يدبّ دبيبًا بطيئًا حتى صعد إلى رأسه مع حركة الحافلة واهتزازاتها. عقد يديه فوق حقيبته التي ترقد على حجره ثم أسند عليهما رأسه المتعب، وراح في إغفاءة.

رأى نفسه وهو يرقص في حلبة واسعة، وحوله خلقٌ كثير، رجال ونساء وأطفال. دائرة واسعة تضج بالراقصين والمغنين، وبنساءٍ جميلات بعضهنّ عاريات. رأى نفسه يعتمر عمامةً بيضاء بلون الثلج، ويرتدي جلبابًا ناصعًا ويحمل في يده سوطًا نحيلًا. يدور على الواقفين الذين لم يعرف أحدًا منهم غير فتح العليم بشفته الأرنبية وابتسامته المثقوبة. ما الذي جاء به وسط هؤلاء الغرباء؟

كان النعيم يضربهم على ظهورهم واحداً بعد الآخر وهم يهزون في وجهه هزاتٍ فرحة، ويتقاذرون مثل الأطفال، وهو أيضاً كان يهز بسوطه النحيل، وينظر إلى معصمه الذي تتدلى منه جدلة طويلة من الحرير الأحمر. لكنه حين يقترب من النساء الراقصات في قلب الحلبة كان ينظر بزهو إلى عضوه المنتصب المشدود تحت جلبابه وهو يتقدمه. رآه طويلاً، أطول مما ينبغي، مثل رقبة جملٍ تتهادى أمام صاحبها، ثم رآه ينغرس بين ردفين كبيرين لامرأة تصفق وتغني. التفتت إليه وابتسمت، رأى فيها وجه إنصاف. تركت تصفيقها ورجعت خطوتين إلى الوراء حتى التصقت به. راح يدفع شيئه إلى الأمام وهي تدفع جسدها إلى الخلف. رمى السوط على الأرض ثم أحاطها بكلتا يديه حتى أمسك نهديهما الكبيرين من الأمام. تعالت أصوات الطبول والتصفيق وجلبة الراقصين فازداد حماسه في السباق اللذيذ. تفصّد جبينه بعرقٍ غزير وانهمك مع المرأة ذات الردفين الكبيرين في رقصةٍ حميمة. وعندما اقترب من بلوغ الذروة شعر بيدٍ قوية تضرب على كتفه. تجاهلها في لحظة النشوة. كلما ازدادت قوة ضرباتها على كتفه تصاعد أداؤه وتصاعد التصفيق وقرع الطبول من حوله، وكأنّ جمهوراً كبيراً يلهب حماسه، وهو يقترب من إحراز هدفه من نقطةٍ قريبة، لكنه حين بلغ خط المرمى، أفاق.

أفاق على صوت ضجيج، ويد السائق الثقيلة تضرب على كتفه، وثمة صوت خشن، بدا له كريهاً وهو يقول له إنه قد وصل إلى محطته الأخيرة وعليه أن يترجل من بطن الحافلة. رفع رأسه بمهل، فإذا بجمعٍ غفيرٍ من الناس يضجون بعصيّهم وطبولهم تحت شجرةٍ لبخ ضخمة قريبة، كانوا جميعاً يتطلعون إليه بتحفض. نظر حوله. الحافلة خالية إلا منه. نظر إليهم مرةً أخرى فوجد نظراتهم مركزةً عليه، فتيقن أنهم يقصدونه. نظر إلى نفسه فاستحى، ملابسه مبللة بعرقٍ غزير وعضوه اللئيم مشدودٌ بين فخذه مثل الودت. تريت قليلاً ريثما تهدأ نفسه ويرقد صاحبه. لكنه حين شعر بطول جلوسه وضيق سائق الحافلة لم يجد بُدّاً من النزول إلى الأرض بمهل، وهو يداري ذلك الشيء المشدود بحقيبته. تابع سيره بخطوات بطيئة قلقة في اتجاه الجمع. لم ينتظروا حتى يصل. هبوا في وجهه جملة حتى أحاطوه من كل اتجاه. نظر في وجوههم فوجدها طافحة بالغموض والتجهم.

- الحمد لله على السلامة يا زول.

قال أحدهم، ضخم الوجه وكبير البطن وهو يدق الأرض بعصا غليظة. دق بها الأرض مرةً ثانية أقوى، ثم اتكأ عليها ليكمل بقية ما جاء من أجله. حاول النعيم أن يقول شيئًا لكن لسانه انعقد فجأة، وشعر بلسانه جافًا ويابسًا مثل حطبة. فتابع الرجل.

- نحن في انتظارك منذ شروق الشمس، والحمد لله أنك جئت في وقتك.

وقال آخرون.

- الحمد لله على السلامة.. الحمد لله على السلامة!

حاول أن يكلمهم من جديد، لكن صوته لم يخرج من حلقه. أمسكه صاحب الوجه الضخم من معصمه وقاده بهدوء ناحية شجرة اللبخ وأقعده في قعرها، ثم جلس إلى جواره، وجلس الجميع من حولهما، وبدأ الرجل يتحدث.

- أهلاً بك يا ابن العم.

تحولت الأنظار كلها ناحيته. مثل أضواء المسرح، فتردد قبل أن يجيب.

- مص..مصطفى.. نعم مصطفى..

قال بنبرة مرتعشة، فصرخ الجميع بطريقة عفوية.

- الله أكبر.. الله أكبر..

ابتسم الرجل وضربه على كتفه بطريقة ودودة.

- حصل الشرف يا سيد مصطفى. أنا اسمي وقيع الله، وهؤلاء جميعًا إخواني وأبناء عمومتي وخوولتي. لم يُعرف عنا قبل هذا سوء أو غدر، ولن نبدأ به مع كائنٍ من كان،

وخاصةً إذا كان ضيفًا. على كل حال، كل شيء في هذا الكون قدره الله بقدر. انتظارنا الطويل لك، ثم مجيئك في هذا الوقت، وجلستنا هذه وما سيعقبها وما سبقها من قولٍ وكراماتٍ للشيخ نور الدين رحمه الله، والله وحده يعلم العاقبة والمآل.

كان النعيم يتأمل كل ما يجري بعينين مذعورتين وقلبٍ متوجس. هل ما يزال يحلم؟ ظنُّ أن حالة الهياج التي تبثها الحكومة في الناس من وقتٍ لآخر قد تدفعهم إلى الإبلاغ عن المطلوبين، أولئك الذين تسميهم بالمندسين والخونة ويلجئون أحيانًا إلى الاختباء في أماكن مثل هذه. هي تفعل ذلك أغلب الأحيان، ويستجيب لها مخبروها السريون أو حتى بعض الحمقى. إلا أن حديثهم وطريقة استقبالهم لا توحى بشيءٍ من ذلك، فممّ يخشى إذن؟ خطر له أن يخبرهم بهويته الحقيقية، لكنه عدل عن ذلك. استراح في جلسته وقرر أن يتمهل ريثما يفصحون عما جاء بهم، وجعلهم ينتظرونه النهار بأكمله.

- لعله خير؟

قال النعيم بنبرة هادئة متحشجة، وقد قرر أن يختبر جلدَه أخيرًا بعد طول توجس.

- خير.. خير.. كل الخير إن شاء الله.

قال وقيع الله، ثم مدّ رجليه ووضع عصاه بين ساقيه.

- والله يا أخ مصطفى نحن لا نعرفك ولم نسمع بك قبل اليوم، ولو أنك جئت في غير هذا الوقت لما انتبه إليك أحدٌ من الناس، لكنها وصية الشيخ نور الدين الكامل رحمة الله عليه. أرجو أن تمنحنا قليلاً من الصبر حتى نحيطك بالأمر كله.

استرخى الجميع في أماكنهم، وهدأت الأنفاس. جاء أحدهم بسطلٍ كبيرٍ من الحليب وبدأ من حيث يجلس النعيم ووقيع الله ثم دار على الآخرين واحدًا واحدًا. سمع النعيم أصوات زغاريد بعيدة قادمة من داخل الحي. جاء في إثرها رجال آخرون استيقظوا من غفواتهم أو

جاءوا من حقولهم ومراعيهم. هل ما يزال يحلم؟ ابتسم وقيع الله مجددًا وهو يشير ناحية أحد الرجال.

- هذا هو محمد بن الشيخ نور الدين، ولقبه هو «أبو السرة».

ضحك الجميع، فأشار الرجل إشارة صارمة فعادوا إلى هدوئهم.

- مات أبوه قبل نحو شهرٍ من الآن بالتمام والكمال. دفنه هؤلاء الرجال جوار قبة جده الشيخ الكامل، ولم يفارقوا مجلس عزائه حتى يُتموا أمر وصيته التي أوصى بها قبل أن يسلم روحه إلى بارئها. أما الوصية فإنه قال بالحرف «محمد معصوم، وأما مريوم فهي ست الكوم» ونحن لم نفهم مقصده من هذا الكلام لكنه قال أيضًا: «استفتوا قلوبكم، وإن لم تطمئنوا فانتظروا شهرًا، ثم اسألوا أول غريبٍ يحل بينكم. فإذا جاء أبلغوه سلامي ووصيتي فإنه بعد ذلك لن يظلم».

هز الجميع رؤوسهم، وابتسم وقيع الله مجددًا وهو يوزع نظراته بين النعيم ومحمد، ثم قال.

- ترك الشيخ نور الدين مائةً وعشرين فدانًا وبيتًا وثلاثة مطامير (مخازن) مملوءة بالحبوب وثلاثًا وعشرين بقرة وسبع شياه. أما بالنسبة للورثة فإنه لم يترك غير محمد ومريم، وهأنت سمعت ما أوصى به، والله وحده يعلم ما أراد الشيخ. هذا هو اليوم الذي حدده لمجيء الغريب، وعندما رأيناك توسمنا فيك خيرًا والأمر اليوم بين يديك.

أطرق النعيم مليًا قبل أن يفه بكلمة. هل ما يزال يحلم؟ نظر في وجه محمد الذي قيل له إنه ابن الشيخ نور الدين. لم يرتح إلى نظراته الغريبة وعينيه الغامضتين، وكأنهما تضمران شيئًا أو تخفيانه، فسأله النعيم.

- لماذا ضحكوا حين ذكر وقيع الله لقبك؟

ضحكوا مرة أخرى، لكن محمد وقف على رجليه ثم رفع جلبابه إلى الأعلى فانحسر عن بطن مستديرة، وسُرّةٍ محاطةٍ بوحمةٍ سوداء مثل دولاب السيارة. ضحكوا بصوتٍ أعلى وأقل حذرًا من المرات الفائتة. ابتسم النعيم في نفسه، وتذكر على الفور فتح العليم وتذكر عمار البركس. استعاذ في سره مما خطر له، ثم أشار إليه ليسدل جلبابه ويجلس.

- هل لديكم من يحمل اسم محمد في عائلاتكم، أقصد غيرك أنت؟

حمحم محمد وهو يدور بنظراته على الرجال الجالسين.

- جدي الكامل جاء إلى هذا المكان الطيب من ناحية المحس أيام المهدية، لا أقارب له أو عصة في هذا البلد. ثم إنه لم يلد غير جدي محمد، وجدي محمد لم يلد غير أبي نور الدين يرحمهم الله جميعًا. وأبي لم يلد غيري وغير مريم أختي.

كان صوته مشوبًا بطنينٍ أخنفٍ بائن. هزّ النعيم رأسه وابتسم.

- الأمر بسيط.. بسيط ومفهوم. سأرى مريم أيضًا إذا سمحتم لي، ثم أقول لكم!

مضى على النعيم دراج بعض الوقت في قرية ود كامل، دون أن يقول لهم شيئاً ذا بال بشأن وصية الشيخ نور الدين أو حتى بشأن أمورٍ أخرى تخصه. لقد نسي تماماً ما جاء به إلى هذا المكان الغريب وما أوقعه في هذه الورطة، وانشغل صاعداً ونازلاً. بما راح يكتشفه في ود كامل كل يوم. إنها قرية صغيرة نشأت من تلاحم الطين والماء، ولو أنها أبعثت عن مكانها ميلاً واحداً لفقدت مبرر وجودها. وناسها كذلك، جزء من هذا التكوين السحري النبيل. كل ما يحتاجه المرء لكي يبقى بعيداً عن الشعور بالغرابة والخطر هو أمرٌ أصيل في تكوينهم الروحي. الخير والشر متعايشان، لا كما يتعايش القط والفأر ولكن كما يتعايش النيل والشط منذ الأزل، رغم فورات الطبيعة وحماقاتها في أوقات قليلة متباعدة، وهذا أقصى ما كان يحتاجه النعيم في هذا الوقت.

هياًوا له بيتاً قريباً من النيل لسكناه وأنسه، مع من يختاره منهم أو من يحمله الدربُ إليه. لا يتذكر النعيم أنه بقي وحيداً إلا في أوقاتٍ قصيرة نادرة. دائماً، هناك من يأتي لمؤانسته، ومن يهتم لطعامه ونظافة ملابسه ومسكنه. أصبح باسمه الجديد وملامحه الجديدة التي اختارتها له الأقدار جزءاً من ود كامل. يلبس مثلهم جلباباً قصيراً وسروالاً في الصباح ثم ينزل إلى الحقول المنبسطة على شط النيل ولا يعود إلا مع الرائحين في المساء، أو يخرج مع الرعاة وقطعانهم إلى السهول القريبة من بيوت القرية مع طلوع الشمس ويعود مع غروبها.

وذات مساء، وهو عائد مع بعض القطيع تذكر عمار البركس، وتذكر كل الأسماء التي حملها والحيوات الملققة التي عاشها فضحك في نفسه. ما خطر له أبداً أن يمر هو نفسه بهذا الاختبار الغريب، وأن يحيا حياةً مزيفة كهذه. لكنه بدا سعيداً رغم كل شيء، حتى أن فكرة العودة إلى الخرطوم لم تطرق باله طوال الوقت الذي أنفقه في ود كامل، وكأنه لم يُخلق إلا فيها. سأل عن الساعي كامل فعرف أنه مات منذ ثلاثة أعوام، ثم سأل عن بيته وزار عائلته

وتحدث طويلاً مع أبنائه، عن نبه وخفة دمه، لكنه في كل ذلك لم ينس أن يخفي حقيقة وظيفته السابقة. قال لهم باقتضاب: إنه كان يعمل كاتباً في المحكمة التي عمل فيها أبوهم.

زار عائلات كثيرة، ولبى دعواتٍ جمّة لتناول الغداء أو العشاء أو شرب الشاي. دخل بيوتاً كثيرة ورأى نسوة جميلات لم يتخيل وجودهنّ في قريةٍ مثل ود كامل. رأى فيهنّ ما لم يره في نساء المدن، رأى أجساداً لا قبل له بها، ورأى وجوهاً صافية لها بهجة الأقمار ونضارة الخبز الطازج، رأى صنوفاً من الغنج القروي الذي يشتعل وينطفئ في غير ما فجورٍ أو سَفَه.

رأى مريم أخيراً. صبية في العشرين أو أزيد قليلاً لكنها مؤدبة، ناضجة، فضجّ قلبه بوجيبٍ لم يعهده. كان سعيداً لكل هذا، سعيداً لاستعادة شعوره بالرغبة، وتدفق الدم إلى مكامن الشهوة في جسده وروحه، سعيداً للمسافة التي باتت تتسع كل يوم بينه وبين حالة النقص التي لازمته طوال حياته، سعيداً كلما تذكر قول محمد سعيد العباسي:

سأل وقيع الله أسئلة كثيرة عن الحياة في ود كامل، كيف يربون بناتهم وأولادهم؟ كيف يعاملونهم إذا بلغوا مبلغ النساء والرجال؟ كيف يزوجونهم ويفرحون بهم؟ قال له وقيع الله.

- نربي أولادنا وبناتنا على الستر والعفة، وعلى إطعام الجائع ونصرة الملهوف. نربيهم على الصدق والمحبة، والصبر والحزم عند الشدائد، ونحرص على أن نحصنهم من الغدر والخيانة وسوء العاقبة.

سأل أخيراً عن شروط الزواج في ود كامل. قال له وقيع الله إنهم جميعاً أبناء عمومة وخؤولة، وإنهم في العادة لا يزوجون غريباً ولا يتزوجون منه، لكنهم لا يمانعون إذا رغب في مصاهرتهم، ثم ضحك ضحكة خبيثة. ضحك النعيم أيضاً لكنه لم يقل شيئاً، إلا أنّ ذلك شجع وقيع الله للسؤال عن وصية الشيخ نور الدين. أطرق النعيم قليلاً قبل أن يسأله عن أكثر الناس قرباً من الشيخ نور الدين، فدلّه على رجلٍ ثمانيني يؤذن في مسجد القرية وينظفه وينام فيه. قصده النعيم بعد صلاة الفجر وشرب الشاي عنده. سأله أسئلة كثيرة

عن حياة الشيخ نور الدين وعائلته وعلاقاته داخل القرية وخارجها، وحين اطمأن إلى ما كان يدور بخاطره شكره ومضى.

في الموعد المضروب تجمع الناس في ساحة مدرسة البنات، وخرج إليهم النعيم قلقًا مرتبك الخطى حتى بلغ المنصة المنصوبة في مسرح المدرسة المكشوف. محمد أبو السرة عن يمينه ووقيع الله عن يساره.

بدأ وقيع الله الحديث بلغة ريفية محكمة. قال إن مصطفى أصبح واحدًا من أهل ود كامل، له ما لهم وعليه ما عليهم، ثم امتدحه طويلاً قبل أن يمهد له ليتحدث. تقدم النعيم خطوتين إلى الأمام وتحدث باقتضاب. حاول أن يجاري وقيع الله في لغته الريفية القوية، لكن أعجزه ذلك فتركها إلى غيرها. بدأ بالاعتذار عن التأخير، ثم شكرهم على ما وجده بينهم من دفةٍ ومحبة. أما بشأن الوصية فقال: إنه يرجح أن يكون مقصد الشيخ نور الدين نبيلًا، كأن يذهب جزء من التركة صدقةً جارية في محبة الرسول المعصوم، وأن تأخذ مريم، البنت الصغيرة الضعيفة نصيبها كاملاً كملاً دون نقصان أو بهتان، والله أعلم. هتف الرجال بالتكبير، وصدحت النساء بالزغاريد، ثم انصرف كل إلى شأنه.

طلب لقاء مريم على انفراد، وتحدث إليها بشأن الوصية وبشأن أمرٍ آخر يخصه، ثم خرج من عندها راضيًا مطمئنًا. بعد ذلك طلب لقاء وقيع الله. أخبره أنه لم يقل للناس كل شيء، لكنه يطلب منه عهدًا ألا يأتي على سيرة ما سيقوله له أمام أحدٍ من الناس، وأن يدفعه حيث سمعه ويخرج. قال الرجل.

- سرك في بير يا أستاذ مصطفى. وبينني وبينه الموت.

عندئذٍ قال النعيم.

- إن محمدًا ليس من صلب الشيخ نور الدين، وإنما ربّاه وأحسن إليه، وستر بذلك أناسًا آخرين. لذلك عصمه الشيخ من قسمة التركة وأوصى بها كاملة لابنته مريم لأنه حقها

بالشرع والقانون.

ثم أخبره أنه اتفق مع مريم على أن تكتنم الأمر، وأن تتنازل له عن المطامير والمواشي، وتكتفي بالأرض والبيوت. ضحك وقيع الله ضحكة ساخرة، ثم قال وكأنما يعتذر.

- أنا أيضًا سأصدقك القول يا ابن عمي. لقد كنتُ أعرف كل شيء، لكنني كنتُ حائرًا في تدبير الأمر. لم تكن هناك وصية في الأساس! «أنتم وشأنكم» قال لنا الشيخ نور الدين وهو على فراش الموت. خرجنا أنا والمؤذن إلى الناس بتلك الوصية الملفقة. ويوم أن رأيتنا تحت شجرة اللبخ كئيبًا في ورطة. كنتُ أدعو الله من قلبي أن يأتينا زائر، وأن يكون عاقلًا وإلا افتضح أمرنا. لكنني أول ما رأيتك هدأت روعي وسكنتُ، لا أعلم لماذا؟ ثم سار الأمر مثلما اشتهيته وأكثر، كما أنك لم تخيب ظني. أنا مدينٌ لك يا رجل!

ضحك النعيم من قلبه، وضحك وقيع الله كذلك. انتهز النعيم الفرصة وقال.

- فاتحتُ مريم في الأمر، وطلبتُ يدها ووافقت. وأطلب منك الآن إتمام ما بدأت.

قفز وقيع الله من مكانه وهزَّ فوق رأسه فرحًا.

- أبشر بالخير.. فالك طيب أيها الطيب.

وافق معظم أعيان البلد على زواجه من مريم إلا شقيقها المزعوم. اتهمه بالاحتيال وبمحاولة الاستيلاء على أرضها وبيوتها، وهدده بالقتل أمام الناس. لم يخف النعيم، ولم يأخذ ذلك التهديد على محمل الجد، لكنه خشي أن يتطور الأمر ويصل إلى الحكومة أو أحد رجالها فيفتضح أمره، فسعى بطريقته إلى تهدئة خاطره. استعان بوقيع الله وبعض أعيان البلد فخلّوا بينه وبين الرجل وأخذوا منهما موثقًا ألا يعترض أحدهما طريق الآخر. هدأت الخواطر، وانشغل الجميع بإتمام الزواج.

كان زواجهما بسيطًا ومبهجًا، وباشره النعيم بروحٍ منشرحة. قال لها حين دخل عليها إنه اليوم أسعد الناس وأوفرهم حظًا وأكملهم بها رغم فارق العمر. وقالت له إنها تحمد الله على العافية ونعمة الستر. خطر له أن يصارحها بحقيقة أمره لكنه خشي أن ينهار كل شيء. قدّر أنها لا تزال طفلة، وقرر تأجيل الأمر إلى وقتٍ آخر. وفعل النعيم في هذه الليلة ما عجز عن فعله عشرين عامًا.

وجد النعيم حياته إلى جانب مريم سهلةً ومليئةً بعاطفةٍ دافئةٍ لم يتوقعها. صغر سنها وقلة خبرتها لم تمنعها من إحاطته بمحبةٍ عفوية صادقة، واهتمامٍ يفوق الوصف. فوق هذا وذاك طلبت منه أن يكون وكيلاً مطلقاً على مالها ونصيبتها من تركة أبيها، لكنه رفض بحزم.

- المال مالك يا بنت الحلال، وما أباشره بشأنه إنما هو حرصُ الزوج على حق زوجته وحلالها، لا أكثر ولا أقل.

وتحت وطأة إلحاحها، قَبِلَ أخيراً أن يهتم بما تعجز هي عن الاهتمام به، أو مباشرته وسط رجال ود كامل. أنشأ باسمها- مخزناً كبيراً لبيع الحبوب، إلى جوار مخازن شقيقها المزعوم محمد. صار في وقتٍ وجيزٍ عاملاً حسن السمعة، وامتدت معاملاته إلى القرى المجاورة وإلى أسماء أخرى في العاصمة الخرطوم وضواحيها. «مريم زوجة صالحة ورزقها مبارك» هذا ما اعتاد أن يقوله طوال الأشهر التي تلت زواجهما. كانت سعيدةً أيضاً لمحبتته وأمانته، رغم البغض المكتوم الذي شمله به شقيقها المزعوم محمد.

لم تحبل مريم. كانت قلقة من ذلك الفراغ الذي يملأ بطنها، هو أيضاً كان يشعر بذلك، لكنه لم يشأ أن تذهب بعيداً في التفكير فيه. كان يكتفي بالقول: إن وقته آت. ولا يزيد على ذلك. حدثها عن زواجه السابق لكنه لم يقل لها كل شيء. قال لها صادقاً إن اسمها غادة، لكنه عاد وكذب بشأنها حين قال إنها ماتت بعد أشهر قليلة على زواجهما وفي بطنها شيء منه، وإنه ظل وفيّاً لها أعواماً تالية!

أيامٌ ناصعة عاشها النعيم إلى جوار مريم. كلما رآها تدخل وتخرج نشطةً مرحة، تعد له طعامه أو قهوته، ترتب ملابسه أو أغراضه. كلما رآها على تلك الأحوال ثم رأى غلالة الحزن في عينيها، شعر بوخزة مؤلمة في قلبه وكاد أن يقول لها بعض ما يخفي عنها، لكنه يعدل

عن ذلك في آخر لحظة. وتراه ساهماً فتقبل عليه وتحادثه، فيسمع صوتها وكأنه نابع من لحظة بعيدة.

- بُكره عند الله يا مصطفى، بُكره زين إن شاء الله.

وقف النعيم أمام المرأة ونظر إلى نفسه ملياً، دُهش لمسحة الراحة التي علّت وجهه، وحلّت محل ملامحه المرهقة المنهكة. إنه أيضاً يتغير، ويأخذه هذا التغيير إلى الانسجام مع حياته الجديدة شيئاً فشيئاً، وإلى الغرق فيها أكثر والابتعاد عن حياته القديمة بالتدريج. لقد جاء إلى هذا المكان هارباً من وهم الاعتقال ومن مضايقات رجال الأمن، لكنه اليوم زوجٌ وتاجر وأحد أعيان البلد. لو أنه خطط لهذا كله لما استطاع أن يدركه بهذه السهولة الغريبة. عاد للتفكير في المستشار تاج الدين أو عمار البركس، وتعجب من قدرته الفائقة على تبديل أسمائه وأحواله كما يبذل قمصانه وجواربه. تذكر تلك القصاصة التي وجدها في بيته، مطويةً داخل رواية الدكتور جيكل والسيد هايد. كان يحتفظ بها داخل كتابٍ أيضاً في حقيبته الصغيرة الملعونة. أخرجها وأخرج نظارة القراءة الصغيرة من درج المرأة، ثم استلقى على سريره يقرأ.

النهر، الساعة ٣٧:٠٧ ص

في المرات القليلة التي تحدثت فيها مع أمي، كنتُ ميالاً إلى أن أعرفني أكثر مما كنتُ أرغب في أن أعرفها. كانت تقول عني: «إنه وَلَدٌ غريب. كثيراً ما أخافني، وكأنني أرافق مخلوقاً من الجن. لم يكن طفلاً يوماً، لم يلعب كما يلعب الأطفال أو يشغب كما يشغبون. لم أعهد إلا شحيحاً قليل الكلام، منطويّاً على نفسه ودائم العزلة». في الحقيقة كان بعض ما قالته صحيحاً، لكن بعضه لم يكن دقيقاً بما يكفي.

لم أحس أبداً أنني وحدي حتى في غيابها، ولم أجرب ذلك الشعور قط. على العكس كنتُ أحس دائماً أنني مملوء بأطياف غامضةٍ مبهمة، تستغرقني وتغنييني عن الانشغال بالآخرين. أحداثها وتحادثتي. لم يكن يضحكني ما يضحك الأطفال ولا يبكييني ما يبكيهم، مبلغ الراحة

عندي أن أرتب أشيائي وأضعها على أنساقٍ ثابتة كل يوم دون أن يشاركني في ذلك أحد إلا نفسي، وهي واحدة أمام الناس لكنها غنية ومتعددة حين أتأملها.

أغضب أحيانًا وأضحك أحيانًا أخرى وأتحدث بمنتهى الغرابة عن أشياء تسبق سني بكثير، لا أعرف من أين أتت أو من أين أمكنني معرفتها، لكنني أجدها حاضرة حين احتاجها. أنزع أحيانًا إلى تمثل شخوصٍ غريبة لم أكن أعرفها أو مررتُ بها في حياتي لكن أجدي بارعًا في ذلك، عميقًا في تحقيقها. ثمة مشاعر تتنازعني، وأخرى تحملي على فعل أشياء غريبة.

أمورٌ كثيرة كانت في متناول وعيي بطريقة لم أكن أفهمها. كنتُ مثلًا وأنا أرافق أمي تجدني أقول لها الطريق من هنا، أو تجدني أفرح أو انكمش إذا رأيتُ أحدًا من الناس دونما سببٍ واضح، أرفض ماءً أو طعامًا بعينه، أصلح أشياء لم أكن قد تعاملتُ معها أو رأيتها قبل ذلك. لم يكن ثمة ما يحملي على ذلك سوى شعور غامض بأنني أعرف هذا الأمر أو مررتُ به في مكانٍ ما رغم حداثة سني وتجربتي، ولم يكن ثمة ما يدل على صدق حدسي غير تعابير وجهها. أنظر فيه أثناء الكلام وبعده، فأجده متنازعًا بين الدهشة والاستغراب والخوف، ثم العجب.

تقدم بي العمر فأدركتُ أمورًا أخرى أغرب، أدركتُ أنني مسكونٌ بآخرين، بأمزجتهم وأحلامهم وتفاهاتهم. أحس دائمًا أنني في رهطٍ، هناك من يشاركني طريقي، بعضه أو كله لكنه حاضرٌ على الدوام. إذا فكرتُ في أمرٍ ما فكأنني أعقد اجتماعًا، واحدٌ يقول: نعم. ويقول آخر: لا. ويتحفظ ثالث، وربما يمرقُ رابعٌ كالسهم فيفعل ما يشاء، شيئًا حكيماً أو طائشًا دون أن يشرك الآخرين فيما عزم. هذا الأخير بالذات أخافه أكثر من غيره لأنه سيمسك بقرني الثور ويخضعه لرغبته ثم يقود بقية القطيع لبعض الوقت.

إنني أحسد أولئك الذين يطمئنون لحالةٍ واحدةٍ طوال حياتهم، أغبط قدرتهم على قمع أحوالهم الأخرى وعلى انتصارهم لروحٍ واحدةٍ على حساب أرواح كثيرة تسكنهم. الإنسان مخلوق ظالم، خلقه الله بأبوابٍ عدة لكنه يحب أن يضع عنوانه على باب واحد.

نادى على مريم ونادى عليه في اللحظة ذاتها، كان خارجاً من غرفته وهي خارجة من الحمام. التقيا في الصالة الصغيرة الممتدة أمام غرف المنزل، جلس على سريرٍ وجلس على الآخر. قالت له:

- هل ناديت علي؟

- أنت أيضاً ناديت علي، ماذا كنت تريدين؟

- كنت أود أن أخبرك بشيء.

- وأنا كذلك.

وقالا بصوتٍ واحد.

- ماذا كان؟

ثم ضحكا. وضعت يدها على فمها وهي تضحك ثم خفضت بصرها إلى الأرض خجلى. كان النعيم ينظر إليها مثل أب قبل أن يُغير نبرته ويقول:

- كنت أود أن أستأذنك في مشوار قصير إلى الخرطوم أعود منه قبل نهاية الأسبوع.

رفعت رأسها.

- لعله خير؟

- كل الخير.

قال وهو ينظر إلى صحيفة مطوية بين يديه.

- لدي بعض الأشغال الصغيرة أفضيها وأعود سريعاً، لن أتأخر.

مرت لحظة صمت قصيرة. كانت تتأمل وجهه وتفكر في الأمر الذي كانت تود أن تقوله له. مسحت على بطنها وهي ساهمة، لكنها حين انتهت إلى أنه ينظر إليها سحبت يدها برفق.

- ترجع بالسلامة يا مصطفى.

ابتسم لسماع اسمه الجديد، حاله كلما نطق به أحد.

- لكنك لم تقولي، فيم كنت تريدينني؟

أطرقت قليلاً ثم رفعت رأسها.

- عندما تعود إن شاء الله.. عندما تعود يا مصطفى. فقط لا تتأخر.

وقامت إلى المطبخ لتعد له قهوته ريثما يرتب أغراضه ويخرج. عاد إلى الصحيفة المطوية، كانت تتضمن مقابلةً مع أرملة مزعومة لتاج الدين المستشار. يسبق المقابلة تعريف مختصر يتضمن اسمها وجنسياتها ووظيفتها، إلى جانب صورة ملونة لها وهي ترتدي حجاباً أسود مع عباءة سوداء أيضاً. أسفل الصفحة صورة أخرى لها مع صبي أسمر ممتلئ لم يكن ينظر إلى الكاميرا لحظة التقاط الصورة، كان مشغولاً بشيء ما بين يديه، لكن ذلك الشيء كان خارج إطار الصورة. إنها مصرية. تعمل رئيسة للقسم الثقافي بإحدى الصحف الحكومية الكبرى. اسم زوجها شاكرا! كان يملك شركة سياحية في القاهرة.

قالت الأرملة المزعومة التي عرفت نفسها بـ فاتن زغلول أو أم كرم إنها فقدت أثره منذ خمسة أعوام، بعد ولادة طفلها بعامين تقريباً ولم تعثر عليه بعد ذلك، حتى رأت صورته مصادفةً في إحدى الصحف بعد وفاته، ولا تشك مطلقاً في أن شاكرا هو ذاته تاج الدين! العنوان الرئيس الذي وضعته الصحيفة للمقابلة «سيدة مصرية تدعي أنها أرملة المستشار

الراحل تاج الدين». ثم نشر المحقق تعقيبًا غريبًا من أحد الناطقين باسم الحكومة يقول فيه: «إن المستشار تاج الدين لم يزر مصر في حياته مطلقًا!» طوى النعيم الصحيفة مرةً أخرى حين جاءته مريم بقهوته، رشف منها رشفاتٍ سريعة ثم ودعها وخرج.

وصل الخرطوم بُعيد منتصف النهار. سار في الشوارع بحذر، حشر جسده النحيل داخل سيارة أجرة وتوجه مباشرةً ناحية الفندق الذي ذكرت الصحيفة أن فائن تقيم فيه. أول ما دخل وجد ذلك الصبي الذي رآه في الصورة جالسًا على أرضية البهو، يرتب مكعبات صغيرة ملونة على نسق مستقيمٍ منظم، يضحك ويتحدث إلى أشخاص غير مرئيين. يبدو في الواقع أصغر منه في تلك الصورة التي نشرتها الصحيفة. ثم رآها جالسةً على طاولة قريبة وقد أنهت غداءها للتو فانضم إليها.

كانت امرأة بيضاء ممتلئة، أقرب إلى القصر منها إلى الطول حين وقفت لتصافحه. أطال النظر في وجهها الأبيض المستدير، الوجه الذي حقنته شمس الخرطوم الحارقة بفورة من الاحمرار والبثور، فبدا كما لو أنه تعرض للضرب أو اللهب، لكنه مع ذلك كان قادرًا على بث الشعور بالارتياح. إنها مليحة، لطيفة المُحَيَّا. بدت كما لو أنها سعيدة بلقائه المفاجئ وبالاستعداد للحديث معه. جلس، ثم قال لها صادقًا، إنه محامٍ وناشط، مهتم بحكايتها وبحكاية تاج الدين المستشار وقصة موته الغامضة، وأنه يرغب في السماع منها، كما أن لديه ما يقوله بشأن الموضوع حتى يشجعها على الكلام.

- هل اسمه كرم؟ قرأت اسمه في الصحيفة.

قال وهو ينظر إلى الصبي الذي لا يزال منشغلًا بمكعباته. أجابته بإيماءةٍ من رأسها وهي تحول بصرها أيضًا تجاه الصبي، ثم نادى عليه باسمه. رفع رأسه، لكن دون أن ينظر إليها أو إلى النعيم ثم عاد إلى ما كان فيه. اقترب منه النعيم، وضع سبابتيه تحت ذقن الصغير ثم رفع وجهه المستدير الممتلئ حتى يتمكن تفاصيله جيدًا. نفس النظرة الغامضة. العينان

الزرقاوان ذواتا اللمعة الزجاجية الغريبة مثلما كانتا لأبيه. لم يخالطه الشك في أن الصبي الذي أمامه هو من صلب عمار البركس.

- هل يعاني من شيء؟

قال لها وهو يعود إلى مكانه.

- حالة توحد كما يقول الأطباء، ربما يتحسن مع التقدم في العمر.

- لفت نظري أول ما رأيت صورته في الصحيفة، والآن كذلك. لا أشك مطلقاً في صدق روايتك لكنني أحب أن أسمع التفاصيل.

هَمَّت بالحديث لكنها انتبهت فجأةً إلى شخصٍ مريب يشغل الطاولة المجاورة لهما، مستغرقٍ في الانتباه إلى حديثهما وإلى تصرفات الصبي، فاقترحت أن ينتقلا إلى طاولة أخرى بعيدة، مطلة على الشارع. تقدمت أمامه بخطواتٍ أنثويةٍ متقنة. وتبعها النعيم وهو يشعر في قربها بإثارةٍ لذيذة. خجل من نفسه. ثم تبعهما النادل ووضع إبريق شاي على الطاولة وانصرف.

- ظن البعض أنني أطارد تركة تاج الدين وأمواله، وخاصةً بعض رجال الصحافة والحكومة، ووصل الأمر إلى حد تهديدي. لو أنهم انتبهوا إلى أنني لا أملك من الوثائق ما يثبت علاقتي بتاج الدين المستشار لما ذهبوا ذلك المذهب. رغبتُ فقط في معرفة بعض الأمور عن شاكر زوجي، أي رجلٍ كان، ولمَ فعل معي ومع ابنه ما فعل. لا يهمني تاج الدين في شيء.

- لعل هذا سبب مجيئي أيضاً.

قال النعيم وهو لا يزال ينظر إلى الرجل المريب وإلى رجلين آخرين انضما إلى طاولته. رشف النعيم من كوب الشاي رشفتين سريعتين ثم أخرج من حقيبته آلة تسجيل صغيرة،

قربها من فاتن ببطء وهو
يقول لها.

- أحب أن أسمع حكايتك معه كما عشتها، لا تهملني شيئاً، أي تفصيلاً صغيرة قد تكون مهمة.

ابتسمت فاتن ثم نادى على الصبي. جلس إلى جوارها هادئاً وعيناه الزرقاوان تتطلعان إلى
نقطة مجهولة في الفراغ. كانت تخلل شعره الناعم المسدل بأطراف أصابعها، ثم بدأت
تتكلم.

عاهدني على ألا يموت، وأن يمنحني حياةً غنية ممتدة. ثم طلب مني أن أغمض عيني وأفتح ذراعي للخلود!

كان غريبًا فعلاً. التقيته أول مرة في الطائرة المتجهة من القاهرة إلى باريس. لفت نظري بأناقته المفرطة وعطره الصاخب وحضوره الذي لا يمكن تجاهله مطلقاً. كان يرتدي طقمًا أزرق داكنًا مع ربطة عنق قرمزية ويضع منديلًا هرميًا على جيب بدلته. أثار انتباهي بطوله النبيل وسواده الفاحم اللامع وعينيه الزجاجيتين الزرقاوين اللتين لم تغفلا عني لحظة واحدة، وكذلك لغته الإنجليزية الفخمة. كان واقفًا في ممر الطائرة، على مسافة مقعد واحد، إلى الأمام من المقعد الذي كنتُ أجلس عليه، لكن صوته كان يأتيني واضحًا وهو يتحدث إلى امرأة انجليزية ذات شعر رمادي تجلس أسفل منه، أمامي تمامًا.

كان يحدثها عن التصوف في الإسلام حديثًا جميلًا أذكر منه الآن شيئًا قليلًا، سمعته يقول: «الصوفية ليست مجرد تفسير باطني لنصوص القرآن، أو محض علاقة روحية بين الرب والإنسان، إنما هي الوجه الرومانسي للدين، الوجه الشعاري الذي يفيض بالعشق. المتصوف الذي يبدع في التعبير عن فئائه في هذه العلاقة شعرًا ورقصًا وفنًا إنما هو عاشقٌ مثالي لا يطلب أو ينتظر شيئًا!». ثم سمعته يكلمها عن الغزالي والحلاج والإسماعيلية الباطنية وجلال الدين الرومي وأبي نواس وعمر الخيام. كانت أحاديثه غريبة، لكنها مثيرة أيضًا.

سألته السيدة الإنجليزية بعد طول نقاش عن الحركات الإسلامية الحديثة، عن الوهابية والخمينية والإخوانية والجهادية. عن إسلاميي السودان وعن فكرهم ومنهجهم في الحكم بوصفه سودانيًا أيضًا، كيف يراه من الداخل ويفهمه، فسمعته يقول لها: «إسلاميو السودان نموذجٌ جيد لقياس تطور الحركات الدينية وفهم طفراتها الجينية في التاريخ الحديث. مع

تجربتهم، وصلنا تقريبًا إلى ما يمكن تسميته بالتدين الرأسمالي، التدين القائم على شروط السوق».

ضحك له ضحكة ودودة، ثم عقبت على حديثه تعقيبًا مقتضبًا لا أذكر ماذا كان. اتصل الحديث بينهما ليشمل أفكارًا وأديانًا أخرى. الرجل مدهش ويتمتع بحس ساخر، ورغم ذلك كان معجبًا بأرائها ويناقشها بإخلاص حتى يصل بالحديث إلى غاياته. فهمت من حديثها معه بأنها باحثة مهتمة بالحركات الدينية في الشرق. كانت تنصت إليه باهتمام حتى وصلت الطائرة إلى باريس، ثم ودعته عجلًا عند مخرج مبنى المطار بعد أن ضربت معه موعدًا للقاء آخر أوسع وأكثر هدوءًا. كانا يسيران إلى مقربة مني حتى افترقا. بمجرد أن ابتعدت، اقترب مني بخطوات محسوبة وقال بلطف.

- إسمي شاكر. أحب باريس كثيرًا، لكنني أحب القاهرة أكثر. أريد أن ترافقني القاهرة طوال الوقت الذي أقضيه هنا.

ضحك.

- لن تحتل ضجيجها طول الوقت. لكنك ستراها حتمًا.

أصلح هندامه بطريقة متكلفة ونحن نعبر بوابة الصالة إلى الخارج وكأنه يُمُنُّ على المدينة بهذا المجيء الفخم. ثم رأيتته يقابل اللامبالاة الفرنسية بعجرفة لافتة، وينظر إلى الناس جميعًا من فوق كتفيه.

سألني عن عملي وعن سبب مجيئي فقلت له: إنني صحفية وجئت للمشاركة في ندوة تتناول عقيدة الدروز وتقاطعاتها مع الأديان الشرقية بمعهد العالم العربي، لكنني سأنزل بفندق هنري الرابع القريب منه. تظاهر بالدهشة حين سمع اسم الفندق، شعرت أنها دهشة مصطنعة، متقنة، وخاصة حين قال إنه يقيم بالفندق ذاته كلما جاء إلى باريس. يحبه لطابعه الكلاسيكي الفخم وقربه من نهر السين. قلت في نفسي: لا بأس. ثم ذهب وذهب.

في الصباح التالي فوجئتُ به في قاعة الندوة، معتمراً قبعة رعاة البقر مع بدلة سوداء فاحمة وربطة عنق حمراء. كان الحضور من حولنا مبهجاً. أساتذة وطلاب وصحفيون وباحثون من دولٍ عدة، معظمهم من المهتمين بالديانات الشرقية، وبينهم تلك الإنجليزية ذات الشعر الرمادي التي رأيتها في الطائرة، وفيهم أيضاً طلاب دكتوراه وماجستير.

كان المتحدث الرئيسي في الندوة الدكتور سكوت. ج. تشارلز، وهو محاضر أسكتلندي وأستاذ متخصص في الأديان الشرقية، يتحدث الإنجليزية والفرنسية والعبرية والصينية والعربية. التقيته في ندواتٍ ومناسبات عدة في القاهرة ولندن وبيروت، وهو الذي دعاني إلى الندوة وكان متحمساً لمشاركتي فيها. كان يرى أهميةً بالغة في عمل شيء حول الدروز وعقيدتهم، يتصور بأنه ضروري. لم أكن مهتمة لذلك في حقيقة الأمر. كنتُ في حالةٍ نفسيةٍ سيئة، وحين وصلتني الدعوة لم أتردد. باريس مدينة ودودة يمكنها أن تخفف كثيراً من تلك الحالة التي كنتُ عليها.

الحديث في الندوة كان منصباً حول فكرة العدالة الإلهية في تناسخ الأرواح لدى الدروز، لكونها الأساس الذي تنبني عليه فكرة العقاب والثواب في الحياة الأخرى. قال الدكتور تشارلز إنه معجب برؤيتهم لموضوع الجسد وعدم إيلائه أهمية تذكر مثلما تفعل مراكز القوى في الأديان الثلاثة الكبرى. معجب بنظرتهم الفلسفية له، باعتباره أحد معابر الروح في رحلتها اللانهائية من الأزل إلى الأبد. تحدث لما يقرب من ساعة ثم تحدث آخرون لساعتين تاليتين عن الموت ومغزاه التجديدي وإلى راحة الدروز الأبدية من الحزن بسببه أو لأجله. الموت تجديد، الموت حياة أخرى.

قالت الإنجليزية ذات الشعر الرمادي إنها وقفت كثيراً عند هذه العقيدة، وبهرتها فكرة أحادية الحياة التي تمثلها الروح فقط، وأن الطبيعة الثنائية للكائنات الروح/الجسد والتي تقرها الأديان الأخرى ضد طبيعة الحياة نفسها. الحياة هي الروح، والموت هو الجسد. إنهما مثل التيار الكهربائي والمصباح، فإذا انعدم التيار فإننا أمام أكوام خاملة من الزجاج والنيون.

أُتيحت فرصٌ محدودةٌ للحضور للتعليق أو إثارة الأسئلة. تحدث ثلاثة من الحضور ثم وقف شاكر بغتة وطلب إذنًا بالحديث. وأمام دهشة الجميع صعد بخطواتٍ واثقة- إلى مكانٍ قرب المنصة ثم وقف لبرهة يتأمل الحاضرين وقد رسم على وجهه ابتسامَةً ساخرة. خلع قبعته وتركها بين يديه، فاكتملت استدارة وجهه ولمعت عيناه ببريق أزرق أكثر دفئًا. وزع نظراته في كل أرجاء القاعة حتى أحاط بها، ثم بدأ حديثه بروح مرحة وهو يشير إلى عينيه:

- قد تعجبون أيها السادة لهاتين العينين الزرقاوين المثبتتين على هذه الجثة السوداء الضخمة، وكأنهما مثبتتان على وجه تمثال من المطاط. لم تكن لأي من أبوي ولا لأحدٍ من أسلافي القريبين مثل هاتين العينين الجميلتين. إنهما إشعاعٌ مقدس من روح أنطوانيت، تلك المرسلية الجميلة التي خرجت في مسيرة النساء إلى قصر فرساي ثم ماتت على أبوابه. يؤسفني أن أقول لكم إنها خرجت إلى المسيرة حزينَةً وجائعة، لم تذق طعام الخبز والنوم لثلاث ليالٍ متتالية بعد أن طردتها صاحبة الماخور الذي يقع قرب سوق المدينة ويقصده الضباط والجنود العائدون من الحرب. لقد تشاجرت مع ضابطٍ سادي لئيم، وبصقت على وجهه فطردت. نعم، لقد كنتُ أنطوانيت، تلك العاهرة النبيلة. لن تحتاجوا للصلاة على روحها بعد اليوم، فهي لا تزال ترفرف، هنا بين جنبيّ.

ضجّت القاعة بالضحك والتصفيق. نجح بهذه المقدمة في أن يلفت انتباه القاعة ويشدها إليه بعد ان اعتراضها الملل لما يقرب من ثلاث ساعات.

- هأنذا اليوم أعود إليكم، باسمٍ آخر هو شاكر ابن عوف، المولود في قريةٍ بائسة تنام أسفل جبلٍ في أقصى غربي السودان، وتقطنها قبيلة عريقة أشك في أن أحدًا منكم سمع باسمها أو رأى أحدًا منها، لكن تلك حكاية طويلة سأعود إليها لاحقًا إذا سنحت الفرصة. المهم أن روحي عاشت طليقةً عبر القرون، تعبر الأزمنة والبلدان مثل الملاحم وقصائد العشق وقصص الأبطال والأساطير. لقد مرّت في رحلتها بحيواتٍ كثيرة متناقضة، لا أذكرها كلها على وجه الدقة لكنني أعرف بعضها بكل تأكيد، وتتلبسني حالاتٌ غريبة عابرة من بعضها

الآخر. لقد خرجت إلى هذه الحياة أول مرة قبل ألف عام في قرية إيرانية تسمى مهاباد، لأب كردي وأم فارسية، لكن الجسد الذي نُفختُ فيه لم يحتملني طويلاً. لفظني بعد العام الرابع بسبب الحمى، فانتقلت إلى جسدٍ آخر لدرويشٍ صوفي جوال، تركني هو الآخر تحت شجرةٍ ومضى. كنتُ راهبةً في أحد أديرة أنطاكيا، وأسدًا خانعًا في بلاط أحد ملوك الأحباش، وفراشةً جذلى في إحدى جزر الموريا، وطباخًا مثلًا في جيش نابوليون الذي غزا مصر، وأخيرًا رجل أعمال يملؤه الطموح في بلدٍ بائس.

ضجّت القاعة بالضحك مجددًا، وتداعى على وقع الضحكات والتصفيق آخرون من خارج القاعة.

- لستُ وحدي طبعًا، إنما أنتم يا سادة بقايا أرواح تائهة. فيكم بقايا أرواح لنبلاء ومحاربين وقديسين وعبيد ولصوص. روحٌ كل واحدٍ منكم تختزن بعضًا من حيواتهم التي عاشوها. وبعضٌ من طباعهم لا تزال تجري في أجسادكم مجرى الدم حتى لو أنكم قمعتموها. إن الدروز والهندوس والصينيين والمايا والأنكا وكل الديانات والشعوب التي تؤمن بانتقال الأرواح وعبورها أخبرتنا عن الحكمة من وجودها، لكنها نسيّت أن تقول لنا كيف نُخلص هذه الأرواح البريئة التي وصلت إلينا بعد رحلةٍ طويلة وشاقة- من أثقالها العظيمة؟ لاشك عندي أن كل الأرواح كانت نقيّة طاهرة أول ما خلقت، لكنها مع كل انتقال، وداخل كل جسد تسكنه، كانت تعترىها لوثة وتفسدها رغبة. يجد الجسد راحته الأبدية في الموت لكن الروح تخرج منه منهكةً يائسة، لأنها تدرك ما ينتظرها. إن حياة الرقيقة أنطوانيت أيها السادة، محاصرة اليوم في داخلي بحيوات أخرى كثيرة، ملوثة وخبثة، شرسة وأنانية، وتافهة وخيّرة، ولكنها لا تملك إلا أن تسير ضمن هذا القطيع المتنافر، وهذا ما يؤلمني حقًا وأرجو أن يكون كذلك بالنسبة لكم. إن روحي المشوشة تعرف بلادكم من قديم أيها السادة، من حوالي ثلاثمائة عام، وعليكم اليوم أن تتعرفوا إلى بعض ما ضاع منكم في شعاب التاريخ. صرخ أحدهم من الخلف بعد صفيّرٍ حاد.

- أهلاً بكِ أنطوانيت الجميلة، هل تقبلين دعوتي على شرابٍ هذه الليلة؟!

وضحك بعدها، وتعالَت ضحكات أخرى. وبينما كانت القاعة تضح بالضحك والتصفيق وضع
قبعته على رأسه وخرج، دون أن ينتظر شيئاً أو يتبادل حديثاً مع أحد.

التقينا على العشاء في بهو الفندق. وسألني إن كنتُ قرأتُ زاوية «فيما يرى النائم»؟

- أحيانًا.

- هل تعجبك؟

- ليس دائمًا.

- أنا معجبٌ جدًا بأفكار كاتبها، أحسها تعبر عني في كثيرٍ من الأحيان.

- القليل الذي قرأته منها لم يعجبني، لأنني لم أفهم أسلوب كاتبها.

ضحك.

- إنها زاوية لطيفة، لكنها في حاجة إلى أن تقرأ في أوقات خاصة. في المساء أو قبل النوم
مثلاً، لكن من الصعب قراءتها وفهمها في الصباح أو خلال النهار.

لم أجادله كثيرًا، لكنني وبعد أن عدتُ إلى القاهرة واظبتُ على قراءتها بعض الوقت. كانت
تنشر في جريدة مسائية، وتكتب بلغة قصصية بسيطة. في كل يوم حكاية عن حلمٍ رآه
كاتبها أثناء نومه. مرةً يرى نفسه لصًا ومرةً يراها قطة أو فأرًا ومرةً طفلًا وأخرى حاكمًا أو
إمامًا، لكنه في كل ما يرى من تلك الرموز يحرص على التأمل العميق في تباين نزوعها
الداخلي ومدى وضوح ذلك التباين. وكأنما هو يلمح إلى أن المعرفة والخبرة تنبعان من
الداخل أولاً، لا من الخارج، وأن أسباب ذلك متشابهة لدى جميع الكائنات. أما الإنسان فإنما
هو مستعمرة معقدة من الرغبات والتناقضات التي يصعب تمييزها أو إدراكها خلال موقف

واحدٍ أو حتى حياةٍ واحدة. عرفت لاحقًا أنه من كان يكتبها لكن باسمٍ مستعار هو سفيان الكندي!

قبل أن ننهي عشاءنا قال لي صادقًا إنه يحب القاهرة. أما صدقه في ذلك فلم أدركه إلا لاحقًا. قال إن سر تعلقه بها يكمن فيما تمنحه له من حيواتٍ غنية تشبع شغفه بفورة الحياة، ثم استطرده.

- أحس كأن في أعماقي بحرًا عجوزًا عميقًا ومتلاطمًا، وعاش وسيعيش لسنوات طويلة، طويلة أكثر مما ينبغي. إنني أشعر بحاجتي الآن إلى ساحلٍ أرتاح لديه.

ضحكت. لم ينتظر تعقيبًا مني.

- أعددك أنني لن أموت. لدي من الحيوانات ما يكفي لأعيش كثيرًا، وربما أكثر مما تخيلين. ماذا قلت يا فاتن؟

بعد ذلك بأشهر قليلة تزوجنا في القاهرة. لا أكذبك، أخذتُ بعض الوقت حتى أخذت هذا القرار الصعب، لكنني لم أندم. عشتُ مع شاكر أيامًا جميلة. إنه رجلٌ مرح، متعدد المواهب، لديه مخزونٌ هائلٌ من القواعد الحياتية التي تناسب كل حالة قد تمر بها. لديه قدرٌ عظيمٌ من تواريخ الأحزان والخيبات والنجاحات. المرأة منا تحب أن تكون إلى جوار رجلٍ بمقدوره أن يصنع الحكايات، وأن يجد لكل موقف ما يماثله من المواقف الشبيهة، التي لن تجعلها فقط تتخذ القرار الذي ترضى عنه، ولكن تفتح عينيها وعقلها على عالمٍ لم تكن تعتقد أنه موجود. عندها ستشعر بأنها في مركز الدائرة، وأن ذلك الرجل هو محيطها الأقصى في كل الاتجاهات، ولا أظنها تحتاج إلى أكثر من ذلك.

كنتُ مع شاكر أرسم حدود العالم الذي بمقدوري أن أصنعه لنفسي وأتحرك فيه. أختار الأماكن التي أرغب في أن أقف عليها وتلك التي لا أرغب. أختار القطعة التي تعجبني من تلك السماء الواسعة لأنظر إليها وحدي. أحدد المنظر الذي أرغب في رؤيته حين أفتح

نافذتي، أو الناس الذين أقابلهم حين أمشي في الشارع. أحس أنني إذا مددت يدي عن آخرهما ستبلغان حدود الأفق في هذا الاتجاه وذاك، ثم يكون بمقدوري أن أجلبهما إليّ. لا أعرف كيف توفرت له كل تلك المواهب الفريدة، لكنني قفزت معه إلى أبعد مما حلمت. انفتحت أمامي أبواب عدة، وفي اتجاهات كثيرة لم تكن في حساباني، حتى وجدت نفسي في قلب الدائرة الضيقة التي تصنع الفارق في كل شيء، وترى البلد كله من ثقب واحد.

أنجبت منه كرم، ونشأت بيننا مدينة أخرى، مرحة وصاخبة صخبًا لذيذًا. كانت نسخة مصغرة منه، في اللون والشكل وخفة الروح، أما أنا فلم أدرك منها شيئًا غير الشبه في شكل القدمين والكفين. رغم ذلك كنت فرحة بها، ومأخوذةً بسحرها، لكنها وبعد السنة الثانية بقليل بدأت تذوي فجأة، وراح صخبها يتراجع يومًا بعد آخر حتى انطفأت كما ترى وحاصرتها العزلة.

الذي أزعجني أن شاكر لم يكن مهتمًا لما يجري، كان مشغولًا بتعزيز صداقة جديدة مع وزير سوداني، اجتمع به في مناسبة عابرة. ظننتها ستذهب إلى حالها مع الوقت لكنها كانت تقوى أكثر، وتمد جذورها إلى زمن غامض، وترمي شباكها نحو مستقبل أكثر غموضًا. صعب عليّ أن أدرك ملامحهما بالتحديد. صار الوزير يتردد كثيرًا على القاهرة وشاكر إلى الخرطوم، وفي العام الذي اختفى فيه أخبرني أنه زار ماليزيا ويفكر في الانتقال إليها، لكنني لم أقل شيئًا.

قاطعها النعيم.

- هل تعرفين طبيعة العمل الذي جمعه بالوزير؟

- لا، لكنهم كانوا يتحدثون عن عمليات نقل، بواخر، موانئ، أشياء من هذا القبيل.

تلقت النعيم حوله جيدًا ثم قال.

- هل سمعت شيئًا عن نقل نفايات مشعة ودفنها في السودان؟

- لا.

- ولا عن حاويات أجهزة إلكترونية؟

- ربما، لا أذكر جيدًا.

- حسنًا أكملني.

- المهم، اختفى شاكر من حياتنا تمامًا بعد ذلك بأشهر قليلة، دون أن يترك أثرًا أو وصية. وبعد مرور ما يقرب من ستة أشهر وصلت إلى باب بيتي رسالة من مجهول، تخبرني أن شاكر قضى في حادث سير في ماليزيا، لكن دون أية تفاصيل إضافية أو عناوين يمكن التحقق منها. زرت ماليزيا ولندن والصين وألمانيا وباريس وتركيا وكل الأماكن التي كان يتحدث عنها أو يتصل بها فلم أعثر له على أثر. جئت إلى السودان مرتين ولم أفصح، حتى ذلك الوزير تهرب من مقابلي في المرتين اللتين زرت فيهما البلد، ثم علمت أنه مات في الطائرة ذاتها، ولم يبق بعد ذلك أي خيط يصلني بشاكر. على كل حال، سأعود إلى القاهرة غدًا أو بعد غد. سأفرغ لتربية كرم وعلاجه، وسأستعد منذ الآن لحماقاته هو الآخر. حدسي يقلقني، وأخشى أن يتلمس طريق أبيه، وأرجو أن أوفق في ألا يحدث ذلك. أرجو أن يكون شاكر قد حمل حماقاته معه إلى جوف النهر وإلى الأبد، وألا تسبح مع التيار نحو الشمال».

ثم ضحكت ضحكة قصيرة مشوبة بالأسى، أغلقت بعدها جهاز التسجيل.

النهر، الساعة ٠٧:٤٥ ص

لقد واجهت موتًا غريبًا في مسارح الحرب في جنوب السودان. ليس ذلك الموت الذي كنت أصنعه في كل مرة ثم أقوم من رماده مثل طائر خرافي خلقًا آخر، لكنه كان شيئًا مختلفًا. هُزمتنا في معركة مفاجئة نشبت مع هبوط الظلام، على مشارف وادٍ كبير في شرق الاستوائية. كُنا حوالي ثلاث كتائب جيدة التسليح، لكن لا أعرف كيف تمت مباغتتها على ذلك النحو حتى أوقعت بها الهزيمة. المهم، أصبتُ بطلقين في فخذي، وكنتُ أتحرك

بصعوبة بالغة. صدرت التعليمات بالانسحاب فجأة. تقدم رفاقي بضعة أمتارٍ في العتمة، وكنتُ في إثرهم أسحبُ رجليَّ سحبًا حتى فوجئتُ بأحدهم وهو يخفض لي كتفه لأستند عليه. أوصلني بخطوات سريعة متعجلة إلى جذع شجرةٍ قريبة تقوم على كتف الوادي، في أول الطريق الصاعد نحو مدينة توريت. على ضوء اللهب المنبعث من إحدى الأكواخ المحترقة رأيتُ وجهه بكل وضوح. إنه سرّ الختم، ضابط الاستخبارات الملقب بين الجنود والمجاهدين بـ «صقر الجو». لم يمهلني لأقول شيئًا أو حتى أتأمل ما يجري حولي، لقد كان في عجلةٍ من أمره. ألقاني على الأرض ثم أطلق من سلاحه بضع طلقات عشوائية في العتمة ولحق برفاقه. أصابتنِي إحداها في جنبي الأيمن، بينما انغrustت ثلاث منها في كتفي الأيسر وأعلى صدري. وعندما فكرتُ في الأمر لاحقًا، لم أفهمه، ولم أعرف ما الذي حمل الضابط سرّ الختم على الانتقام مني. هل كان تحريصًا أم تصرفًا فرديًا؟ حاولت أن أتذكر أمرًا واحدًا جمعني به، في خيرٍ أو في شر فلم أجد، هو في حاله وأنا في حالي طوال المدة التي قضيتها مسؤولًا عن كتائب المجاهدين في تلك المنطقة. ما فهمته بعد ذلك أن الرغبة في وجودي صارت في حدها الأدنى بين إخوة الأمس، فحمدتُ الله أنني نجوت.

لا أدري كم لبثتُ على تلك الحال. أفقتُ من غيبوتي وسط ثلة من الجنود المتمردين وهم يضمّدون كتفي الممزق وجزءًا من أعلى صدري وجنبي الذي كان ينزف. أقاموا بعد ذلك حفلةً صاخبة على شرف أسري. قضيتُ بينهم بضعة أشهر. زارني بعض قادتهم وتحدثوا إلي أحاديث كثيرة، بعضها كان عاقلًا متزنًا وبعضها الآخر متشفيًا ساخرًا، لكن أغلبها صار ودودًا، خاصةً بعد انقضاء الأسابيع الأولى. مرّت ما يقرب من ثمانية أشهر. تخلّيت عن العصي التي كنتُ أتوكأ عليها وصرّتُ قادرًا على الحركة بصورةٍ أفضل. سمعتُ من بعض الأفراد المكلفين بمراقبتي بأنهم يرغبون في مبادلتني ببعض أسراهم لدى الطرف الحكومي. فزعتُ من ذلك أيما فزع، وقررت وقتها أن أتدبر أمر الهروب رغم ضيق الوقت وصعوبة عملية الفرار في حد ذاتها، لكن لم يكن من ذلك بد.

في إحدى ليالي الصيف قادت القوات الحكومية حملةً عسكريةً ضارية على مدينة توريت وما حولها من اتجاهات ثلاثة. امتدت المعارك حتى القرى القريبة من المعسكر الذي كُنّا

نقيم فيه، وصارت ناقلات الجند والذخائر تجوب الغابات والأودية، وتم نقل أكثر الجنود إلى الخطوط الأمامية ولم يبق في المعسكر غير عدد قليل. انتهزت فرصة انشغالهم بالمعارك وهربت. مشيتُ ما يقرب من خمسين ميلاً على قدمي وسط الوحل والأحراش والغابات، حتى بلغت معسكرًا للصليب الأحمر الدولي يقع داخل الحدود اليوغندية بشق الأنفس. أخذوني من هناك إلى كمبالا ومنها إلى القاهرة. كانت رحلة قاسية وشاقة انتهت بارتداء حياة جديدة، لشخص آخر اسمه شاكر. أُلصقتُ صورته وكُتب اسمه على جوازٍ أزرق تصدره الأمم المتحدة للناس الذين لا تقبلهم أوطانهم. قلتُ صادقًا لمندوب مكتب اللاجئين في كمبالا إنني تعرضتُ للتصفية، وإنني لا أرغب في العودة إلى بلادي. خيروني بين ثلاث مدن إفريقية واخترتُ القاهرة. كنتُ قد قررتُ أن أختار حياةً بعيدةً عن كل حيواتي السابقة.

هناك تعثرتُ بفاتن. لم يكن ثمة ما يدعوني إلى الاقتراب منها إلى هذا الحد سوى هذا الشعور الذي لم أجربه في حياتي قط، حتى أمي التي ولدتني لم يربطني بها هذا الشعور. هكذا نشأتُ وهكذا عشتُ حياتي خاليًا من أي محبة، لم أحب أحدًا سوى نفسي، ولم يحبني أحد كذلك. ما أقسى هذا الشعور، وما أصعب تفسيره. بل ما أصعب اكتشافه.

الذي أحزنني أكثر أنني انتهتُ إلى كل ذلك بعد فوات الأوان. لو أن أحدهم بذر هذه النبتة العظيمة في جوفي ذات يوم لربما تغيرت أشياء كثيرة. لكن لم يفعلها أحد. كل أولئك الذين صحبتهم تَرَكَوا أثرًا في حياتي، لكنه لم يصل إلى مرتبة الحب، حتى اكتشفتُ وجود بذرتِه خارج روحي مصادفة، مثلما تُكتشف عُشبةٌ ما، في صحراءٍ ما. مثلما يعثر مغامرٌ مجنون على كائنٍ ما في عمق أحد المحيطات. لقد اكتشفتُ بغتةً أن صحراء روحي شاسعة، لا حدود لها، وأن أعماقي مظلمة أكثر مما تخيلتُ.

أحببتها، لا أعرف كيف حدث هذا، أو كيف استسلمتُ له؟ اندهشتُ كما يندهش الأطفال، وتبعْتُ ذلك الخيط الرفيع الذي سقط أمام عيني من سقف الدنيا فجأة. رأيتها أول مرة

ولعلها لا تذكر ذلك في حفلٍ أقامه أحد الكُتاب المرموقين في دار اتحاد الكتاب المصريين في القاهرة لإطلاق كتابٍ جديدٍ لا أذكر ماذا كان عنوانه، أظنه كان رواية.

كنتُ جالسًا في المقاعد الخلفية، وكانت هي على المنصة، تدير الندوة بإخلاصٍ بائن، وبروحٍ طليقة، تشعرُك أن الذي يفصلك عن الحياة الفاضلة التي طالما فكرتَ فيها هو غلاف تلك الرواية المحظوظة، هكذا ببساطة. كانت القاعة مكتظة بالكتاب وبالصحفيين ومشتعلة بضجيج كاميراتهم وأضوائها، لكن ذلك كله لم يكن في دائرة اهتمامي.

سرحتُ في أعماقٍ بعيدةٍ في نفسي وأنا أسمع حديثها الذي كان له طعم مختلف، وأتأمل تلك الوضاعة التي تسيّل على وجهها. تقفز بالكلمات، بالتعبيرات الغضة مثل طفلةٍ مرحة، ثم تنثرها في فضاء القاعة مثل فقاعاتٍ ملونة. وخيّل لي أنها خرجت من الكتاب ذاته، وأنها ليست حقيقة. قالت فجأة وهي تقرأ جملةً في الرواية جاءت على لسان فتاة: إمّا أن يُخلق الحب مع الإنسان وهو في بطن أمه أو لا يُخلق. وكل الحب الذي يأتي بعد ذلك هو نوعٌ من التعويض! ثم أضافت على لسان أحد أبطال الحكاية: كل لحظة حب حقيقية هي أمر يحدث خارج الزمن، والإمساك بها يحتاج إلى قفزةٍ خارجه. الحب حياة مضافة غير محسوبة على حياتنا الأساسية. ثم ضحك ضحكة طويلة متصلة، وعلقتُ على ذلك بقولها: أرجو أن تضيفوا بضعة أعوامٍ على أعماركم يا سادة، اعتبروها تعويضًا أو حياةٍ أخرى! ضحك الجميع لكنني لم أضحك، انتبهتُ إلى أنني لا أملك حتى الآن ما أخصمه أو أضيفه، وأن رأسمال جميع حيواتي لا زال كما هو دون ربح، وتحسرتُ.

سألها أحدهم مما زحًا.

- وأنت؟ كم تضيفين؟

- أنا سأخصم.

قالت بمرح، ثم اكتسى وجهها بغلالة من الحزن وهي تستطرد.

- لا فائدة من أن نلتقي كما تلتقي الأنهار ثم تصب جميعها في مجرى واحد، إنها بذلك تصنع نهراً واحداً ونحن كذلك سنصنع حياة واحدة. الحب الذي لا يمنحنا حيوات كثيرة غنية إنما هو حب راكد، سيصيبه الأسنُ يوماً ما.

لملمت حضورها الذي نثرته في جو القاعة وهمت بالانصراف. إنها جميلة كاللحم، عسيئة مثله. بعيدة مثل شيء قريب لا يمكنك امتلاكه. نظرت نظرة أخيرة قبل أن تغادر، قالت عيناها نصف جملة غامضة، جملة مبتورة، لا بفعل قائلها، لكن كأنها وُجدت هكذا في الأصل. كم أمضيث وأنا أفكر فيها بعد ذلك؟ أي الطرق سلكت حتى التقى طريقي بطريقها؟ تلك كانت أهم محاولة بذلتها في حياتي لأفعل أمراً مختلفاً، وإن اتبعث من أجلها حيلتي القديمة نفسها. كان جمالها يستحق المجازفة، وروحها جديدة تغري بالتعلق والاكتشاف. رأيت ذلك في عينيها، الروح الجديدة تجعل النظرات طازجة، وتحقنها بالفضول والبراءة.

علمت من آخرين أنها انفصلت عن زوجها، وظلت تعاني من ذلك أشهراً طويلة، لكنها مع ذلك كانت قادرة على مداراة مرارتها وفرض حضورها الطاغي في كل مكان. حضرت ندوات كثيرة، وقرأت من أجلها كتباً كثيرة وصحفاً ومجلات، لكن ثمة أشياء كانت تؤخر زحفي نحو الهدف. الحالة التي حملتني إلى مصر لم تكن مثالية. لا عمل ولا عنوان ولا خطة، سوى التسكع مع بعض المثقفين والكتاب في المقاهي والندوات التي تعجّ بها القاهرة.

ظللت على هذه الحال قرابة عامين، ثم حصلت على وظيفة مرشدٍ سياحي أنقل بين القاهرة والأقصر وسيناء والساحل الشمالي. أخذت النجاحات تمسك بتلابيب بعضها البعض مع إنشاء شركة سياحية صغيرة، ثم شركة وساطات تجارية محلية ودولية. وفي وقتٍ متزامنٍ تقريباً اقترب مني جلال الدين وبدأت فاتن تبتعد.

كان وزيراً في الحكومة، لكن نشاطه وطموحه كانا أوسع من ذلك المسمى بكثير. جاءني به أحد رجال الأعمال الذين جمعني بهم ظروف القاهرة، ثم قال لي: إن قريبك هذا في حاجة إلى مساعدة، وأنت أفضل من يقوم بها. لسوء حظي تذكرني الرجل، وتذكر أياماً بعيدة

جمعتنا في مجالس العائلة الكبيرة. أطل النظر إلى وجهي ثم ضحك: أنت موهوب يا أخي، ونحن نحتاج إلى هذه الموهبة.

رغم حنقي وسوء حظي، غمرني شعورٌ غريب، كما لو كنتُ طفلاً وجد عائلته بعد رحلة طويلة من الرهق والضياع. في أقل من عام، كانت بعض أموال العائلة العتيقة تجري بين يدي ومن خلفي، واحتاج عملي الجديد أن أتقل بين عواصم مختلفة تحت أقنعة كثيرة. تطلب الأمر أن أعود إلى الخرطوم تحت قناع المستشار تاج الدين، وأن أرعى ما كلفْتُ به بعيداً عن الضوء والضوء.

فاتن كانت على مسافة من كل ما جرى. لم يكن من الحكمة أن تعرف، كما لم يكن من الحكمة أيضاً أن تبقى إلى جانبي في هذا الطريق الجديد، رغم محبتي العظيمة لها، ولابني الوحيد الذي كان نسخةً مصغرةً مني. ثمة مسار كان عليّ أن أمشي فيه من دونها، وأن أكمله مع زوجة أخرى طارئة، حثمت وجودها إلى جانبي تلك المهمة الجديدة.

كان عليّ أيضاً أن أصفي ذهني لحسابات قديمة متراكمة لابد أن تخرج عن ذمتي، وإلى الأبد، وحسابات جديدة لابد أن أفتح لها صفحةً في العمر. أطراف أخرى، علوية كانت ترغب في أن تبقى بعيدةً ونظيفة الأيدي، ولذلك كله عدتُ مجدداً إلى عائلتي وإلى بيتي الأول.

بعد ساعاتٍ من الطواف المرهق والأسئلة التي بلا جدوى، وصل النعيم إلى قرية ود السلطان في ريفي المناقل. لم يجد أثرًا لذلك المدعو أحمد سليمان.

عثر أخيرًا على سائق شاحنة غريب الأطوار. أبدى استعدادًا غريبًا للحديث في أيِّ شأن. تعجّب النعيم، وذكر له اسم أحمد سليمان واسم أمه سالحة مرزوق مثلما قرأه في نسخة شهادة الميلاد. ضحك السائق ضحكةً قصيرة ساخرة لم يفهم النعيم مغزاها. وهو يدعوهُ إلى تناول كوب من القهوة عند بائعة شاي مقابل محطة الحافلات والشاحنات. أقسمَ له الرجل أنه لا يعرف أحدًا بهذا الاسم إلا أنه سيقدم المساعدة بدافع الشهامة!

لم يجد النعيم حرجًا في أن يستمر معه في حوارٍ مُسلٍّ لعله إن لم يعثر على ضالته يقتل الوقت المتبقي حتى انطلاق الحافلة، فقرر أن يجرب شيئًا آخر.

- أريد أن أسمع ما تعرفه من حكايات البلولة مع النساء يا...!

- صديق.. اسمي صديق.

- نعم يا صديق، أسأل عن ذلك الرجل.

قال النعيم وهو يراقبُ أثر الانفعال على وجهه. صمتَ صديق لبرهة ريثما تعبرُ المفاجأة من أذنه إلى عقله. ضيق عينيه قليلًا وهو ينظر إلى النعيم.

- البلولة؟ لا أظن أن أحدًا بهذا الاسم مرَّ على قريرتنا منذ أن خلقها الله! من أين تأتي بهذه الأسماء؟

- لعلني نسيْتُ الاسم، لكنه رجل فحل مزواج، اشتهر بمغامراته مع النساء.

أطرق الرجل قليلاً، ثم أضاء وجهه بانفعالٍ مفرح.

- لعلك تقصد بلال ود الماحي؟

- ربما هو.

- ومن أين تعرفه؟ هذا مات قبل أكثر من خمسةٍ وعشرين عامًا!

- ليس مهمًا، فقط قل لي.

أطرق مرةً أخرى ثم قال بنبرة أقرب إلى الشك.

- لكن لماذا تسأل عنه هو بالتحديد؟ ماذا تريد من حكايته؟

- لا تقلق، أنا مجرد كاتب أجمع حكايات من هنا وهناك.

لم يبدُ على الرجل أن الحيلة قد انطلت عليه. أخذ رشفة طويلة من قهوته وأشعل سيجارة من نوع برنجي ثم راح يتحدث دون أن ينظر إلى النعيم.

- لا يوجد في هذه القرية كلها من يذكر خصلةً سيئة في ود الماحي عدا ذاك الأمر الذي تعرف، وحتى في ذلك لم يكن إلا رجلاً فحلاً نبيلًا، وقد تتعجب.

سحب نفسًا من سيجارته ثم نفث دخانًا كثيفًا من فمه وأخذ يراقب تصاعد الدخان إلى الأعلى.

- أنا أعرف أهل هذه القرية واحدًا واحدًا، أعرف أنسابهم وقبائلهم وما يقولون وما يفعلون. تأتيني أخبارهم وأنا على ظهر شاحنتي تلك، هل تراها؟ منذ أربعين عامًا، وهذه الشاحنة العجوز وشاحنات أخرى سبقتها من نوع فيات وداتسون وأوستن وبيد فورد، ظلت تجوب

القرى صيفًا وشتاءً وخريفًا. ما من شيء وإلا نقلته عن طيب خاطر، الناس والبهائم والأخشاب والفحم وأثاث البيوت وكل شيء.

أطلق ضحكة طويلة خشنة انتهت بسعال حاد، ثم استطرد وهو يعدد له بعض الأمور على أصابع يديه.

- عشت أنقل الخضار واللبن، أحمل الرجال للأفراح ومجالس العزاء. آتي بالعروس إلى بيتها، وأخذ النفساء إلى أمها والمطلقة إلى بيت أبيها والجنائز إلى قبرها. حتى الموتى يا رجل، حتى الموتى أعرف مراقدهم فردًا فردًا. الرائح والغادي منهم لن يعجبه أن يركب تلك الحافلات التعيسة التي ستقتله حتمًا في حادثة سير، لذلك أنصحك أنت أيضًا ألا تقترب منها.

أطفأ سيجارته على الأرض ونهض بغتة.

- لن أكمل حديثي هنا. ما رأيك؟ تنعدي عندي ثم نتحرك قبيل مغيب الشمس إلى ود مدني. لدي بعض الحليب سأوصله إلى المدينة وأعود ببعض الأغراض التي تخص آل الطاهر في الصباح من هناك، ولن تجد أفضل مني رفقة. هيا إلى البيت.. هيا.. هيا.

تأبط النعيم حقيبته التي لا تفارقه وسار إلى جواره، يداه خلف ظهره وعيناه تتأملان الوجوه وحركة الناس في الشوارع والأزقة المتعرجة. أغلب البيوت مدفونة إلى نصفها وكأنها قامت من باطن الأرض على مهل. أكثرها من الطوب الأخضر اللين وقليل منها من الطوب الأحمر المحروق. الشوارع الترابية، وكل ما يمكن أن تطأه الأرجل غارق في الوحل ومياه المطر، حتى الناس وحوائط البيوت وهيكل السيارات. لا شيء وإلا فيه أثر من الطين والوحل. أمسك النعيم بذراع رفيقه وهما يجتازان فوق صف من الحجارة وضعه السائرون على بركة واسعة من الطين تغلق الشارع الضيق. لكن أول ما انعطفا ناحية ساحة صغيرة تتوسطها مدرسة، أشار السائق ناحية بيت مهجور من الطوب الأحمر.

- هه، هذا بيت الفحل. صديقك ود الماحي الذي سألتني عنه.

نظر النعيم في اتجاه البيت. قَدَمُه واضح وكذلك عُلُوّه الغريب، محاطٌ أيضًا بسورٍ مرتفع ومتآكل في مواضع كثيرة منه.

- لا يبدو أن أحدًا سكنه بعد موتِ صاحبه يا صَدِيق.

لم يجبه الرجل، وإنما أشار ناحية بيتٍ آخر من الطين لا سور له، محاط بكتلٍ من الأغصان الشوكية الجافة، وتبدو في ركنه القصي بقايا غرفة من الطين لا سقف لها، لكن عليها آثار حريق قديم.

- بين هذين البيتين حدثت أعظم مأساة شهدتها ود السلطان، لذلك لن يسكنهما أحدٌ ولن يقترب منهما كذلك. هل ترى؟ حتى البيت الذي يتوسطهما كان للشيخ دفع الله رحمة الله عليه، هجره صاحبه وأولاده من بعده لينجوا جميعًا من اللعنة!

أحس النعيم بشيء غامضٍ في نفسه، وأخذ يتأمل البيوت الثلاثة لبعض الوقت. خطر له أن يسأل الرجل عن حكايتها، لأن هاجسًا غريبًا هجس في نفسه، أن ما جاء من أجله له علاقةٌ ما بهذا المكان. في النهاية لم يطلب ولم ينتظر، اندفع كالمجنون ناحية البيت الطيني المهدم. أزاح كتل الأغصان التي تغلق مدخله ثم عبر الفناء المهجور بحذرٍ شديد حتى أشرف على بقايا الغرفة التي بلا سقف. وقف لبرهة يتأمل أكوام مخلفات الحريق التي تملأ جوفها، ثم بدأ يقلب بحذر كل ما وقعت عليه عيناه. بقايا أثاث، صناديق، كراكيب كثيرة متفحمة.

لم يُجدِ البحث عن شيء ذي قيمة. حمل قضيبًا من الحديد كان مُلقًى في الجوار وراح ينبش به كل أرجاء الغرفة المتداعية حتى ثار غبارٌ خانق حجب عنه الرؤية وخنقه بالسعال الحاد. صار ينبش بعصبية، يزيح هذا، وينقل هذا عن ذاك حتى وجد صندوقًا حديدًا في حجم حقيبة متوسطة. هيكله مسودّ ومتآكل من أثر الحريق والرطوبة، حاول أن يسحبه

لكنه عجز. صرخ يطلب مساعدة رفيقه السائق الذي رفض الاقتراب من المكان. أخرج الصندوق إلى الفناء بصعوبة ثم فتحه. أحذية جلدية متنوعة، ملابس مهترئة لصبي في الرابعة أو الخامسة عشرة من عمره، جهاز راديو صغير، زجاجات عطور فارغة، كُتب مدرسية قديمة وثلاثة سكاكين صدئة مختلفة الأحجام. وجد في قعر الصندوق دفترًا عريضًا ضخمًا، أوراقه متيبسة، ملتصقة ببعضها. جلس النعيم على الأرض ثم راح يفتحه برفق، شيئًا فشيئًا. الدفتر مليء بالرسومات، لكنها رسومات بدائية مرعبة، لامرأة مفصولة الرأس في أكثر من مكان. رسومات لطفل يرفع قبضته ويصرخ غاضبًا في أكثر من موضع ومشار إليه بسهم وبحروف إنجليزية مختصرة غير مفهومة، وأخرى لطفل أصغر لكنه مخنوق بيدين ضخمتين، وعلى بطنه ما يشبه بقعة سوداء داكنة بالقلم الرصاص. رسومات لامرأة عارية لا رأس لها في أغلب المواضع، وفي بعضها لها رأس لكنه مخطط بظلال كثيفة باللون الأسود. ثم صورَ أخرى لرجلٍ عارٍ بذكر طويلٍ وخصيتين ضخمتين، لكنهما دون تعريفاتٍ أو أسماء. ثمة كتابات بخطٍ دقيقٍ ومتشابه لم يميز منها شيئًا.

كان السائق مرعوبًا ومرتبكًا ويلح على النعيم لكي يغادرا المكان. استجاب النعيم أخيرًا لكنه لم ينس أن يأخذ الدفتر. حشره في حقيبته السوداء ثم تبع رفيقه. بدا الضيق والاشمئزاز واضحين بعد ذلك في تصرفات السائق وفي تعامله مع النعيم دراج، بل التزم صمتًا مريبًا عجز النعيم أن يفسره، أو يكسره إلا بالقليل جدًا من الكلام. تحول ذلك الدفء الذي شمله به الرجل منذ أن التقاه إلى نوعٍ بائنٍ من الضيق. ثم أثناء الغداء وبعده، وحتى في زرائب البقر وهو يعبئ شاحنته بعبوات الحليب لم يفقه الرجل بكلمة. كان قلقًا من شيءٍ ما، ممتقع الوجه، متعرق، يشعل السيجارة بعقب الأخرى، وعيناه تدوران حوله بلا هدف، وتتحاشيان النظر مباشرةً في وجه النعيم. حتى صاح معاونه بأن الشحنة جاهزة.

صعد النعيم إلى جواره صامتًا، يداه تحيطان بحقيبته التي على حجره بقوة، وظل كذلك حتى خرجت بهم الشاحنة الصغيرة من طرقات القرية ناحية مزارع مشروع الجزيرة الممتدة باتجاه الشرق. كانت الطريقُ النحيلة التي تشق المزارع طويلةً ومملة. ومبعث الملل

- لَمَ تَقُلْ لِي، مَاذَا حَدَثَ فِي ذَلِكَ الْبَيْتِ الْمَهْجُورِ؟ لِمَ تَتَحَاشَى الْحَدِيثَ عَنْ ذَلِكَ؟

تجاهله بالصمت، لكن النعيم كان ملحاحًا.

- بحق النعمة الشريفة التي أكلتها في بيتك، أيًا كان ما ستخبرني به فهو سرٌّ بين رجلين!
ولن أكتبه أو أحدث به أحد. هذا عهد!

ظلَّ الرجلُ محدقًا في العتمة التي تخترقها مصابيح سيارته لبعض الوقت قبل أن يقول
وهو يهز رأسه.

- لقد كان ولدًا ملعونًا.. أعوذ بالله.. أعوذ بالله!

تحفّز النعيم أكثر وقال متلهفًا.

- هو الذي أحرق البيت، أليس كذلك؟

تابع كما لو أنه لم يسمع.

- ألم أقل لك إن بلالًا ود الماحي كان رجلًا نبيلًا؟

أشعل سيجارة ثم مضى يكمل.

- كانت امرأةً في مقتبل العمر، فوق العشرين بقليل، بسيطة وجميلة أيضًا لو أنك تجاهلت
رهق الحياة البائن على جسدها ووجهها. جاءتنا من المجهول، أذكر أنها كانت ترتدي ثوبًا
أصفر فاقعًا، وزمامًا مستديرًا في أنفها، وهلالين كبيرين من الذهب يتدليان من أذنيها.
تتوسط خديها ثلاثة شلوخ خضراء صغيرة مثل الوشم في كل جانب، وتزين جبهتها
ضفيرتان صغيرتان مزينتتان بودعٍ أبيض. لا أحد يعرف لها أصلًا أو نسبًا أو قرابة، إلا من
طفلٍ في الرابعة أو الخامسة من عمره، كان يمسك بطرف ثوبها وهي تدور به في أنحاء
السوق تبحث عن عمل. أقول لك: لقد كانت امرأةً غريبة. حاول بعضهم أن يحسن إليها

بصدقة أو مساعدة، لكنها كانت ترفض، قالت إنها تريد عملاً وحسب. رآها بلال، وعرض عليها أن تعمل في تنظيف الحبوب في مخزنه الكبير. وافقت على الفور. نزعت عنها ثوبها الأصفر لتبدأ العمل، فكشفت عن جسدٍ يزلزل الكيان. آواها بلال في ذلك البيت الطيني الذي رأيتته هي وابنها. ألحق الولد بالمدرسة وتفرغت (صالحة) وهذا كان اسمها. لعملها المضني. لا أعرف، لعل مجيء صالحة كان فال خير على ود الماحي، إذ أعقب عامًا من المحل وآخر من هجمة الجراد. لقد كان عام رخاء ووفرة، ذلك الذي أدركته صالحة. أصبحت سيدة المخزن وتحت إمرتها عشرة نساء يعملن في تنظيف الحبوب وتخزينها. سقطت عن كاهلها سنوات الشقاء والفاقة، وصار اهتمامها بنفسها بائنًا بعد أشهرٍ قليلة. كشفت عن جمالٍ قروي متوحش فتح شهية الرجال عن آخرها. لم يجد ود الماحي بدءًا من الزواج منها، وما كانت لترفض رغم علمها أنها الزوجة الثامنة أو التاسعة التي يدخل عليها، وأنها قد تضطر إلى تحمل ما لا يمكن تحمله!

وأشار بذراعه إشارةً بذيئة، ثم ضحك ضحكة متحشجة انتهت بسعالٍ حاد. جامله النعيم بضحكة باردة قصيرة. كان متلهفًا لسماع بقية الحكاية، لكنه لم يشأ أن يقطع على الرجل نشوته.

- هل كان ود الماحي كبير ال فعلاً؟!

- كان كذلك. حتى ظننتُ أنها ستموت تحت وطأته. كنتُ كلما رأيتها أتعجب، كانت تنتعش وتتفتح مثل نبتةٍ ذابلةٍ غمرها الماء. صارت حديثَ الرجال والنساء على السواء، بل وصل الأمر إلى الصبية والأطفال، وذلك ما عَجَل بالكارثة. سبحان الله، بلال نفسه الذي كان وقتها كهلاً في أواخر الستين عاد إليه شبابه وعنفوانه بعد أن فقد الأمل في الزوج والولد. رزق منها بمجذوب، وملاث عليه بيته بالحب والطمأنينة والصخب، وانشغل بلال بطفله المرح اللطيف، وبحياته الجديدة التي عوضته ستين سنة من الكآبة وسوء السمعة بين النساء. لكن ذلك اللعين أبى إلا أن يفسد عليه تلك البهجة.

- ماذا كان اسمه؟

- كان اسمه آدم، لكنه.. لكنه... أعوذ بالله، أعوذ بالله. دعك منه. المهم أن صالحة لم تستطع البقاء طويلاً في بيت ود الماحي بسبب ذلك الولد الغريب. كان يكره أخاه ويكره بلالاً كذلك، بل ويكره نفسه أيضاً. كانت أمه تستيقظ منتصف الليل أحياناً، فتجده قد غادر البيت إلى بيتهم الأول. كان معقداً ومنطوياً على نفسه، يقضي معظم الوقت وحيداً في ذلك البيت الطيني الذي رأيت، يرسم أو يقرأ أو يفعل أشياء لا معنى لها. الواضح أنه كان معقداً من علاقة أمه بـود الماحي، ومن أحاديث الناس ومعايرة أقرانه له بأمه الغريبة، الفاتنة، حتى ملأه الشك فيما يبدو. أنها تعيش معه في الحرام وأن أخاه مجذوب هو ثمرة لتلك العلاقة غير الشرعية، رغم أن بلال لم يطأ امرأة لا تحل له قط، أقسم لك، وأنه ما تزوج كل أولئك النسوة إلا مخافة أن يقع في الحرام. لقد كان صديقي ولا يوجد من يعرفه أكثر مني. المهم أن صالحة اضطرت بسبب الولد إلى العودة إلى بيتها الأول، ولم تكن تذهب إلى بيت ود الماحي إلا عندما يكون آدم في المدرسة، وظلت على ذلك الحال ما يقرب من ثلاثة أعوام.

في الأثناء اقتربت الشاحنة من محطة العبور الرئيسية التي تقع على مدخل مدينة ود مدني، استأذن رفيقه ونزل يحمل بعض الأوراق. تابعه النعيم على أضواء بروق خافتة كانت تومض في البعيد حتى بلغ خيمةً يجلس على بابها شرطيان مسلحان. غاب صديق لبعض الوقت ثم عاد يتأفف.

- هؤلاء لا يشبعون من الرشوة، لو كانت لي سلطة في هذا البلد لعلقتهم على أعواد المشانق.

حشر أوراقه خلف شمسية السائق، ثم أشعل سيجارة وانطلق مجدداً. مرت فترة من الصمت لم يتخللها سوى صوت ماكينة الشاحنة الذي يعلو وينخفض مع تغيير ناقل السرعة. حاول النعيم أن يعيد السائق إلى أجواء الحكاية مرةً أخرى.

- ألم يفعل بلال شيئاً إزاء الولد؟

- حاول أن يتودد إليه لكنه لم يفلح، ولو أنه لم يفعل لربما تجنب الكارثة. ألم أقل لك إن الولد ملعون؟ لقد استغل ذلك العطف الذي أبداه الرجل، وتظاهر أمامه بالخوف من أشياء غامضة، ورجاه كثيرًا أن يترك منزله الرحب ويبقى معهم في تلك الخرابة التي رأيتها. لا أعرف ماذا جرى لود الماحي؟ لعله كان يشعر بعاطفة أبوية قوية تجاه الولد. استجاب لطلبه، وصاروا جميعًا يبيتون ليلة هنا وأخرى هناك. وتظاهر الولد أمامهم بود مصطنع لم أرتح له. حذرت بلالًا لكنه لم يكثر، فأحرقهم جميعًا ذات ليلة وصرخ يطلب النجدة. أعوذ بالله.. أعوذ بالله.. والله لن أنس ذلك المشهد العجيب ما حييت ولن أنس وجه ذلك الولد اللعين الذي كان يلعب بالخبث والنشوة. دفنا بلالًا وزوجته وطفله مع شروق الشمس في مقبرة واحدة، وجاءت الشرطة وأخذت الولد. عرفنا بعد ذلك أنهم أحالوه إلى مصلحة الأطفال الأحداث في مدينة ود مدني ليعاد تأهيله. كان في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمره حسبما أذكر. هذه قصة مفعجة، لم تشهد هذه القرى شيئًا مثلها منذ أن خلقها الله. طوال عشرين عامًا أو أكثر لم تخلُ ود السلطان عمن يسأل عن حكاية ذلك الولد الحاقد. أعرض الناس عن تلك القصة المرعبة ودفنوها مع أصحابها. إنهم لا يحبون أن يتذكروا منها شيئًا أو يعيدوها في أذهانهم، لذلك أخذت معي في هذه الرحلة حتى لا يحدث لك مكروه.

بدأ المطر يهطل. ماسحات المياه على الشاحنة لا تعمل. عبر السائق جسرًا صغيرًا بمهارة، ثم انعطف بها في طريق ترابي واسع يمر بين صفين من البيوت على جانبيه. سارت فيه لبعض الوقت حتى توقفت عند محل كبير لبيع الألبان. تدافع بعض العمال تحت زخات المطر يساعدون السائق في إفراغ الشاحنة من أسطوانات الحليب الرمادية الكبيرة، ويحملونها عبر البوابة إلى داخل المجمع التجاري. نظر النعيم ناحية اللافتة الباهتة المعلقة على بابه ليقرأ ما كان مكتوبًا عليها، لكن نورها انطفأ فجأة مع انقطاع الكهرباء عن المدينة كلها. غرق المشهد في ظلام دامس، إلا من أضواء البروق التي كانت تدهن الأسطح والسقوف والأرض المبتلة بين وقت وآخر.

في الصباح التالي، أوصل السائق رفيقه النعيم دراج إلى دار الأطفال الأحداث على ضفة النيل بمدينة ود مدني مثلما طلب منه، لكن بصعوبة بالغة، بسبب الطين والمطر وزحام السير. وقف أمام مبنى مشيد من الطوب الأحمر ومحاط بالشجر. أشار السائق إلى بوابة الدار التي لا تحمل لافتة، ثم ودعه ببساطة ومضى.

دخل النعيم، وبدأ من أول مكتب يقع في طريق دخوله، يسأل الموظفين واحداً بعد الآخر عن نزيل يهمله أمره، مرّ بهذه الدار منذ خمسة وعشرين عاماً واسمه آدم. دلّوه أخيراً على وحدة الأرشيف والمعلومات، وقابل موظفيها، سألهم عن آدم، وحكى لهم شيئاً من حكايته مع بلال ود الماحي في قرية ود السلطان، كما سمعها من صديق، لكن دون أن يعثر على خيط.

قرر أن يقتحم مكتب المدير. حاولت السكرتيرة منعه لكنه تجاوزها ودخل. بعكس ما توقع النعيم، كان المدير العجوز لطيفاً. هسّ في وجهه وغمره بالود والترحاب وهو يتقدمه إلى داخل المكتب. نسي النعيم حنقه، وقدم نفسه بطريقة مؤدبة.

- النعيم أحمد دراج، قاضي محكمة عامة سابق.

جلس المدير المؤدب خلف مكتبه، لكن بعد أن اطمأن لجلوس ضيفه أولاً.

- أهلاً بك يا مولانا، كيف أساعدك؟

- لدي قضية قديمة تهمني، وأرجو أن أجد عندك ما أبحث عنه.

- تحت أمرك يا مولانا، لن أبخل عليك بشيء.

- حسناً.

قال النعيم، ثم أضاف بلهجة ودودة.

- لا أود أن آخذ من وقتك الكثير. كُفْتُ من إحدى الجامعات بإعداد مخطوطٍ لمرجع أكاديمي، يتضمن بعض السوابق القضائية وحالات الجرائم النادرة لوضعها ضمن منهج طلبة القانون بالجامعة. إحدى تلك الحالات كانت لصبي غريب الأطوار. مرّت بداركم هذه قبل وقتٍ طويلٍ نسبيًا، وأود المساعدة بشأنها.

- وما هو المطلوب مني بالتحديد؟

- أريدك أن تخبرني بما تعرف عن حكاية طفل ود السلطان، آدم. دون أن تهمل أية تفاصيل حتى ولو كانت صغيرة. ستسألني طبعًا من هو آدم وماهي حكايته؟ ولنكسب الوقت، سأنعش ذاكرتك ببعض المعلومات. آدم طفل قتل أمه وزوج أمه وأخيه الأصغر حرقًا في قرية ود السلطان في العام ١٩٧٧، قبضت عليه الشرطة ثم حولته إلى هذا المكان. لا أظن أن أح...

- آه، عرفته.. عرفته.

قال الرجل وهو يشير إليه بيده، كما لو كان يطلب منه أن يتوقف عن الكلام. نظر إليه النعيم نظرة استفهام فتابع.

- الطاووس الأسود؟ إنه أشهر من مرّ بهذا المكان منذ تأسيسه وإلى اليوم.

قال الرجل وقد التمعت عيناه بحمايس غريب.

- هذا أمر مشجع.

قال النعيم، ثم أضاف.

- هيا، أريدك أن تقص علي قصته من الألف إلى الياء كما أخبرتك. حاذر أن تنس شيئاً.

- حسناً ولكن الأمر يتطلب كوباً من القهوة، دعني أضيفك ثم نبدأ. ما رأيك؟

هزّ النعيم رأسه موافقاً رغم شغفه وعجلته. نادى الرجل على صبيّ المكتب، طلب ماءً وقهوة ثم استدار ناحية خزانة حديدية قديمة لها صرير. راح يبحث في رفٍ محدد مكتظ بالملفات عن ملف آدم وهو يتحدث إلى النعيم دون أن ينظر إليه.

- حكاية هذا الولد قديمة طبعاً كما تعرف، وهي أول حالة أتعامل معها بشكل مباشر. كنت وقتها موظفاً جديداً لم يكمل أسبوعه الأول في هذه الدار الجميلة. لا تستغرب يا مولانا، لقد كانت نظيفة وأنيقة وليست كما تراها اليوم، لكن تلك قصة أخرى. المهم، أنت محظوظ لأنك جئت في الوقت المناسب. بقي على تقاعدي أقل من شهرين ولن تجد من يعرف عنها شيئاً من أولئك الموظفين المهملين.

استل ملفاً أصفر قديم وجاء به بين يديه، وضعه أمامه على الطاولة ثم اتكأ عليه بمرفقيه. مطّ النعيم ظهره إلى الأعلى فقرأ بوضوح الرقم المدون على الملف (٣١) ثم قال الرجل.

- دفع إليّ الدكتور التيجاني مؤسس هذه الدار- بملف هذه القضية لأدرسه وأستخلص منه بعض الأفكار قبل أن أستقبل الحالة، ثم أوافيه بخلاصاتي بعد لقائها والحديث إليها. لقد كان اختباراً فيما أظن.

جاء بالماء والقهوة، وضعهما الصبي على الطاولة وخرج. تابعه المدير بنظراته حتى أغلق الباب خلفه ثم تابع حديثه.

- أتذكر أنه جاء بالصبي، مكبل اليدين والقدمين بسلسلة طويلة، وفي حماية ثلاثة من رجال الشرطة. كانوا جميعاً حذرين ومتحفزين، لكنه على العكس كان هادئاً، ثابت النظرات. وقف منفرج الساقين بسبب القيد، واضعاً كفيه فوق بعضهما عند مبتدأ السلسلة، فوق مكمنه تماماً. تأمل المكان لبعض الوقت ثم ركز عينيه الزرقاوين الغريبتين في وجهي وفي

هذا الملف الذي أمامي على المكتب. لا أخفي عليك، كنت متوترًا بعض الشيء لا أعرف ما أقول وما أفعل، لكن سرّ إليّ عدوى الهدوء فأشرت له بالجلوس. أمرت الشرطي بفك القيد عن يديه. تردد أول الأمر لكن إلحاحي دفعه إلى تنفيذ ما طلبت منه دون إبطاء. عندما نظرت في عيني الصبي لأول مرة شعرتُ فيهما بمزيج من الأسى والامتنان، لكن لم أرَ ضعفًا أو جزعًا. نظر إليّ نظرة ممتنة ثم أطرق يتأمل أثر القيد حول معصميه. أشرتُ برأسي للشرطيَّين الثلاثة فغادروا المكتب وتركونا وحدنا.

- كيف حالك يا آدم؟

قلتُ، فأجاب بنبرة هادئة.

- بخير.

- أين ولدت ومتى؟

- لا أعرف، لكن سمعتها تقول سنة الجراد.

- من هي؟

- المرأة!

- أي امرأة؟

أشاح بوجهه.

- تلك التي ماتت!

- تقصد التي قتلتها؟

- لم أقتلها، ماتت!

- وأين وُلدت؟

- لا أعرف، لقد كُنّا ننتقل على الدوام.

رحت أبحث داخل الملف لأنتقل بالحديث إلى نقطة أخرى. لم يكن يتضمن أية معلومات مفيدة، سوى التحقيقات المألوفة للشرطة والنيابة، معه ومع آخرين في قرية ود السلطان. أغلقتُ الملف.

- قل لي يا آدم. لو عاد بك الزمن إلى ما قبل الحادثة، هل كُنْتَ ستفعل ما فعلت؟

- لا أعرف.

- وهل تعرف أنك قاتل؟

ضحك من أنفه.

- أقول لك بصدق، أيضًا لا أعرف. بعض الأشياء أفعالها من نفسي وبعض الأشياء بسبب الوسواس.

- أي وسواس؟

- شيء ما، يقول لي افعل ولا تفعل!

- هل كُنْتَ تحب أمك وأخاك؟

- أسئلتك غريبة!

- ما الغريب فيها؟

- لا أعرف.

صمت قليلاً ثم استطرده.

- عندما جنثُ إلى ود السلطان في صحبتها. بعد جولةٍ طويلةٍ في القرى التي حولها، لم أعترض على العيش مع ذلك الرجل. لا شيء يمكنك الاعتراض عليه طالما أنك جائع ومقهور، هكذا ببساطة. مات أبي وأنا في بطنها، لا أعرف عنه شيئاً ولا أعرف أحداً من عائلته أو أصدقائه. كل ما عرفته عنه منها طبعاً. أنه مات في قتالٍ ضد فرسان البقارة حول ثارٍ قديمٍ وتركنا دون عائل. رغم صغر سني وقلّة حيلتي بحثتُ عنه في قرينتنا وفي كل القرى التي حولنا، بحثتُ عنه باسمه وأوصافه التي كثيراً ما تتبدل. ما أن أرى رجلاً فارغاً طويلاً وكبير اليدين حتى أهرع إليه منادياً «يا بابا» فيزجرني، ثم تعطيني وصفاً آخر فأطارده رجلاً أبيض ذا لحية بيضاء فيزجرني أيضاً، ورجلاً ثالثاً أسود ممتلىء وذاً شارب كثر، أناديه «أبوي.. يا بابا» فيضربني حتى كرهتهم جميعاً. كرهتُ كل الرجال تقريباً. بحثتُ بعد ذلك في كل مكان استطعت الوصول إليه عن اسمه، أصله وعائلته، عن إخوةٍ له أو أقرباء لكنني لم أفجح، ولعلها كانت تريد ذلك. كنتُ كلما سألتها تدلني على قبيلة أو قرية مختلفة في كل مرة، ثم لا أجد شيئاً حتى يئستُ، وأيقنتُ أنني ابنها وحسب. ثم علمتني الحياة ذاتها أنه لا يهم إن كان لك أبٌ حقيقي أم لم يكن، المهم أن تجد من يطعمك ويؤويك ويهبك اسماً تضيفه إلى اسمك. هكذا يا سيدي وجدثُ نفسي ابناً لذلك الرجل.

صمت لبرهة وكأنما يتردد في قول ما يريد ثم تابع.

- وذات يوم.. أقصد في ذلك اليوم.. ذلك... ذلك اليوم الذي لا أنساه، عدتُ جائعاً من المدرسة، لم أجدها في البيت. ذهبتُ إلى بعض جاراتها فلم أجدها، ذهبتُ إلى المخزن ولم أجدها كذلك، بحثتُ عنها في السوق وفي كل الأماكن التي أعرفها ولم أجدها أيضاً. انتبهتُ بغتةً إلى أن بلال غير موجود في دكانه، وهو أمرٌ غريب، بل ونادر الحدوث. سألتُ الصبي الذي يعمل في الدكان قال لي إنه ذهب إلى البيت في شأنٍ له. خطر لي أن أذهب إلى بيته فأسأله، لكنني ترددت. خشيتُ أن أجد ما دار بخاطري

وما كان يقوله الصبية عنه وعنهما. جلسْتُ فوق حجرٍ على قارعة الطريق غير آبهٍ بالحر وبلفح الشمس. مرَّ عليّ أحدهم ومسح على رأسي: مالك يا بني؟ لم أجبه، فتركني ومضى. استبدَّ بي الجوع وقررتُ أن أذهب وأرى، وليتني لم أفعل. أول ما دخلتُ وجدته جاثماً فوقها وهي تفرفرُ تحته وتلول. وعندما رأني قام فزعاً ورأيتُ شيئه الضخم، و....

ثم غلبه الكلام وراح ينشج. قمتُ بعدها من مكاني وأخذته في صدري حتى هدأ. جنَّته بالماء وكوباً آخر من الشاي وجلسْتُ إلى جواره.

- ألهذا فعلتَ ما فعلت؟ لقد أخطأت يا آدم، ود الماحي كان زوجاً لأمك على سنة الله ورسوله وأمام الأَشهاد.

- لا أظن يا سيدي، ما رويته لك كان قبل زواجهما بأسابيع، أذكر ذلك جيداً مثلما أراك الآن أمامي. بدأتُ أفكر في أمور كثيرة، فكرتُ في الانتحار وفي الهرب، لكن شيئاً ما في داخلي كان يؤخر ارتكاب تلك الحماقة. كنتُ أحب المدرسة وأحب القراءة إلى درجةٍ لا يمكنك أن تتخيلها، وقد تلاحظ أثر ذلك ربما. المهم، خشيتُ إن هربتُ ألا أجد مدرسة أخرى، ألا أجد من يطعمني ويؤويني، وأظل وحيداً وهائماً على وجهي مثلما حدث لي ولها بعد أن طردنا أهلها ذات يوم، فعدلتُ عن الفكرة. جاء ذلك اللعين ذو الوحمة السوداء التي على بطنه، وخشيتُ أن يعيرني به أندادي في المدرسة مثلما كانوا يعيرونني بأمي وبعلاقتها مع ذلك الرجل. صبرتُ طويلاً على ذلك لكنني عقدتُ العزم وقررتُ أن أفعل ما فعلت. ولعلك تعرف بقية الحكاية.

- ما فعلته ليس بالشيء الهين يا بني، أظنك تعرف.

- أعرف، والحكومة ستشنقني في نهاية المطاف، اليوم أو غدًا أو بعد غد، إنها مسألة وقت. لكنني وحتى يحدث ذلك أريد أن أتعلم وأقرأ. جد لي مدرسة وهات لي كتباً كثيرة، هذا كل ما أرجوه منك.

شعرتُ، لسبب ما، أنني مسؤول عن هذا الولد. أخبرتُ الدكتور التيجاني والنيابة وكل من له علاقة بأمره، ثم وقفتُ إلى جانبه. استخرجتُ له شهادة ميلاد بمعرفتي. ألحقته بمدرسة وسطى نظامية تقع خلف هذا المبنى. نجح في الامتحانات النهائية وانتقل إلى المرحلة الثانوية. أظهر تفوقاً في دراسته وفي تحصيله المعرفي بطريقة مذهلة، لنا وللقضاة ولوكلاء النيابة الذين كانوا يزورونه بين وقت وآخر، ثم قرروا الإفراج عنه لحسن سلوكه وتفوقه الأكاديمي وقد أمضى خمس سنوات تقريباً في هذه المكان. طلب أن يبقى معنا لحين إكماله المرحلة الثانوية التي لم يتبق عليها سوى أقل من عامين، لكنه حين أصبح على أعتاب السنة الأخيرة طلب مني فجأةً أن أساعده في الانتقال إلى مدرسة ثانوية جيدة، لها سمعة أكاديمية طيبة تمكنه من دخول الجامعة دونما عناء كبير. استغربتُ الطلب، لكنه لم يفصح عن شيء. جلسنا نستعرض بعضاً منها، عرضتُ عليه مدرسة حنتوب القريبة من هنا فرفضها على الفور، ثم عرضتُ عليه خور طقت في الأبيض فرفضها أيضاً، ووادي سيدنا في الخرطوم فلم ترق له. لكن حين ذكرتُ بورتسودان الثانوية لمعت عيناه وأضاء وجهه: هذه هي.. هذه هي.. وقد كان. جمع كتبه وحقائبه ثم ودعني. كأني في ذلك الصباح أودع ابني، احتضنته طويلاً وبكيت. لم أره بعدها، ولم يعد للسؤال علي. لا أعرف إلى أين أخذته الحياة أو كيف تدبر أموره من بعدي.

بدا صادقاً. قال النعيم بعد برهة صمت.

- هل لاحظت شيئاً غريباً في تصرفاته؟

- مثل ماذا؟

- انفصام مثلاً؟ تناقض في التصرفات بين موقف وآخر.

- لعلي نسيث شيئاً، أو تجاهلته بالأحرى!

- ما هو؟

قال النعيم باستغراب. مط الرجل جسده فوق مكتبه حتى يقترب من النعيم.

- كانت لديه ميول مثلية فيما يبدو. ضبطه حارس السكن عارياً تحت أحدهم. حدث هذا مرة واحدة ولم يتكرر بعدها، أو ربما حدث ولم نعلم به.

ثم أضاف بأسى.

- لكنه أحزنني كثيراً.

عاد إلى جلسته. اتكأ على مقعده مرة أخرى نظره نحو السقف.

- لقد كان الولد غريباً فعلاً. السنوات التي قضاها هنا ملأته بحماسٍ إلى أشياء غريبة متناقضة. أطلق لحيته لبعض الوقت، أصبح متديناً، حريصاً على قراءة القرآن وأداء الصلوات وافتعال الجدل. ثم أبقى على لحيته الشعثاء وصار بوهيمياً. كان شاعراً وخطيباً وممثلاً بارعاً على خشبة المسرح، إن بكى تبكي وإن ضحك تضحك. ثم نسي كل ذلك بعد حين ولجأ إلى الاعتزال وإلى التصوف. تشعر أنه مسكونٌ بأرواح من الجن، وقد تخاف إذا تأملت عينيه الزرقاوين الغريبتين اللتين تموران بغموضٍ مخيف. كان متعجرفاً أيضاً، مزهواً بنفسه وبمعارفه، دائم الاعتزال والانقطاع عن الناس أغلب الأحيان. أسماه الدكتور التيجاني الطاووس الأسود. من يومها نسينا اسمه أو اسماءه الأخرى. وصرنا نطلق عليه الطاووس الأسود. جاء الطاووس.. راح الطاووس.. لقد كان موهوباً، وغريب الأطوار.

لم ينس النعيم وهو يغادر أن يأخذ نسخةً من بعض أوراق الملف الأصفر. وضعها بعناية إلى جوار الأوراق التي تخص المستشار تاج الدين وكذلك دفتر الرسومات. علق الحقيبة على كتفه وخرج.

النهر، الساعة ٠٧:٥١ ص

لا يمكنه الآن إلقاء اللوم على أحد، كما لا يمكنه حتى لوم نفسه. لقد حدث كل شيء لأنه كان ينبغي له أن يحدث. كانت روحًا سوداء تلك التي سكنت آدم، لا يمكنه الآن تغريبها أو تحميلها كل ما جرى، كما لا يمكنه القطيعة معها على نحو تام. إنها أول روح أمسكت بقرني الثور ثم أخضعت بقية القطيع على نحو مذهل، هكذا بدا له الأمر في وقته. أما الآن فإنه لن يستطيع أن ينسى، ولن يستطيع أن يسامح، لكنه سيحاول أن يتفهم. إنه مثلهم، وُلد وحول سُرته البارزة وحمّة سوداء عظيمة، تحيط بها إحاطة الخاتم بالإصبع، لكن أحدًا منهم لم يرها. هو وحده من جعل لوجودها مغزىً وتفسيرًا، ثم راح يتصرف وفقًا لما أدركه.

كانت كيميائًا معقدة تتفاعل وفق منطقتها الخاص. اختارت أن ترشحه لذلك الدور الغريب، اختارت أن تضعه في الواجهة وتتوارى خلف صورته الهادئة. كانت روح الطفل تعجزه عن إدراك أشياء كثيرة تحدث أمامه وخلفه، تبدو كما لو أنها تحدث في عالمٍ آخر، لكن ما يخصه منها ظلّ في متناول وعيه تمامًا. لن يصدق أحدًا أن آدم كان يعرف عن نفسه أشياء كثيرة حتى قبل أن يولد بوقتٍ طويل. إنه اختار أشياء كثيرة، منها لحظة ميلاده والحيز الذي يود أن يشغله في التاريخ. اختار أبويه أيضًا، وشارك على نحوٍ ما في تشكيل مصيره ومصيرهما، لكن هل سارت الأمور كما اشتهى أو أراد؟

من الأشياء الغريبة التي يتذكرها آدم اللحظة التي اخترقت فيها دودةٌ أبيه بيضةً أمه، ثم نشأ منهما في تلك الغرفة المعتمة. هل سيقول إنه هو الذي جمع بينهما، واختار تلك الدودة اللعينة من بين ملايين الديدان التي كانت تسبح في العتمة؟ هل سيقول إنه رأى ذلك الشبح الذي رسم حول سرته وحمّةً سوداء ومضى دون أن يرى وجهه؟ هل سيقول إنه كان يخطط من تلك اللحظة أن يصنع بنفسه لنفسه بعض ما يتمتع به الآخرون من جهلٍ وحكمة، ونزقٍ ومجد؟ وإنه ولد وفي يده مفاتيح الأشياء؟ ولذلك كله بكى وضحك، وقتل وانتقم، وغفر وراوغ، وفعل ما لم يخطر ببال أحد؟! لن يستطيع أن يقول ذلك، لكنه سيقول إن الله وضع في روحه موهبة عظيمة.

في تلك القلعة التي تقع على ضفة النيل نسج جيدًا العلاقات بين الأرواح التي تسكنه بهدوء. اختار لكل واحدة منها ملامحها ودورها ووقتها، حتى إنه أجرى تمرينات هادئة لكل واحدةٍ منها، وطبّع نفسه على التكيف معها حين يحين الموعد. كان يأمل أن يمضي كل شيء وفق الخطة، لكنه لم يضع حسابًا لما يضمّره القطيع، ولما يتطلبه البحث عن عائلة.

لقد اكتشفته العائلة منذ وقتٍ مبكر، منذ أن كان حدنًا يقضي وقته في استعادة إنسانيته واكتشاف عوالمه. هو لا يعرف حتى الآن كيف عثروا عليه، لكنه يتذكر شخصًا غامضًا كان يأتيه مرتين أو ثلاث كل أسبوع، يدرسه القرآن وأحكام التجويد ويعلمه الصلاة. لكنه بدل ذلك كان يقضي معظم الوقت في الحديث عما كان يسميه هموم الأمة، وعودة المجتمع إلى الله، وتطبيق أحكام الشريعة في كل صغيرة وكبيرة. يأخذه يوم الجمعة من كل أسبوع ليقتضي يومًا كاملًا برفقته ورفقة آخرين، يؤدون صلاة الجمعة ثم يقصدون إحدى المزارع الكائنة في أطراف المدينة. هناك يحدثونه مجددًا عن الدين والتاريخ والآمال العظيمة الكامنة في النفوس وفي صدور الرجال. يعود من هناك آخر النهار محملاً بالمال والكتب.

ومع إتمام السنة الأولى في المرحلة الثانوية كانوا قد ضموه إلى صفوف العائلة واختاروا له اسمًا حركيًا، ومشروعًا ومسارًا طويلًا يقود إلى الفوز والجنة! أدرك آدم لاحقًا أن حياته السابقة كانت مثار نقاش العائلة ومحط اهتمامهم. كانوا يخافون من تبعاتها إذا تقدمت الأيام وكبر. اقترح الرجل الغامض أن يختاروا له اسمًا جديدًا وبطاقة تعريف مختلفة. اختاروا اسم عمار فلم يعترض عليه، واختاروا مدينة أخرى لظهور نبوءته في الآفاق فلم يقل شيئًا. كان يخاف كثيرًا. يخاف من الغد، من المجهول. من كل شيء. لذلك وافق، ومن ثمّ دعموه بكل الوثائق الضرورية وأبعدوه.

مع بدء السنة الأخيرة التي سبقت دخوله إلى الجامعة كان جزءً من العائلة ينتظره في مدينة بورتسودان، وفي مدرستها الثانوية الأشهر. هناك تسلم عمار واجباته كاملة، ومن هناك استعدّ جيدًا لغزوة الخرطوم وما تلاها من غزوات عظيمة مباركة.

الطريق بين مدينتي ود مدني والخرطوم طويلة ومملة. طريقٌ ضيقة ملتوية تمر على قرىٍ وحواضر كثيرة متشابهة، لكنها منبسطة وعامرة بالناس على جانبيها، وتكاد تنتفي عنها صفة الطريق البرية من كثرة القرى القائمة عليها مثل حبات المسبحة. تأخذ الحافلة زهاء ثلاث ساعاتٍ كاملة وهي تطويها صاعدة أو نازلة، ثم لا تستقر على سرعة واحدة طوال رحلتها بسبب ازدحام الطريق وانشغالها بالناس والمواشي والشاحنات على السواء.

كان النعيم يفكر في مريم، لكنه لم يكن قد علمَ بعدُ بأنها حامل بطفلهما الأول. سيسعد حتمًا لهذا الحدث الذي تأخر عشرين عامًا لو أنه عرف. لطالما فكر في أن يقول لها كل ما يخفيه. «ستفهم مريم، ولن تغضب أو تطلب الطلاق» قال في نفسه. كان يسابق الوقت للعودة إلى ود كامل، فقد آن الأوان أن يضع العلاقة مع مريم على سكتها الصحيحة. هل ما يزال يخلط بين الوهم والحقيقة؟ أيهما حدث في الحلم وأيها حدث في الواقع؟

دار بذهنه أيضًا شريط حكايته مع المستشار تاج الدين، وتجلياته المُحتملة الأخرى كعمار البركس وشاكر وأدم وأحمد. هل بقي من اللغز الغامض شيء؟ ما الذي سيضيفه بعد كل ما رأى وسمع؟ لقد زار تقريبًا كل المحطات المفترضة في هذه الحكاية الغريبة، ولم يعد هناك ما/من يمكن أن يلاحقه. حتى مدينة ود مدني التي قالت زوجته بثينة إنه جاء منها. طاف أحياءها كلها قبل أن يغادرها، لم يجد فيها أثرًا لتاج الدين المستشار. لعل بثينة كذبت عليه أو لعل تاج الدين نفسه كذب عليها. كأنه كان يتعمد أن يقطع كل خيط يربط حيواته الغريبة ببعضها، ويضيع أثره أول ما يترك إحداها إلى غيرها.

هل كان المستشار تاج الدين حقيقةً قائمةً فعلاً أم أنه كان يطارده وهمًا لم يحدث من أساسه؟ ما الذي يجعله يختبئ خلف كل تلك الأقنعة الغريبة والمتناقضة إن كان قد حدث فعلاً؟ ما الذي يدركه الإنسان من ألا يكون نفسه في كل الأحوال؟ هل يرهقه الوجه

الواحد؟ هل ترهقه الحياة الواحدة؟ هل تضيق بأحلامه وحماقاته إلى هذا الحد، فيستعير لها حيواتٍ أخرى لتتسع وتكبر؟ ما الذي يجبر الحكومة أو الناس الآخرين على التواطؤ معه إن كانوا يعلمون حقيقته أو يشكون فيها؟ ما مدى دقة الفرضية التي أهملها النعيم أثناء بحثه الطويل المرهق، ألا يكون عمار البركس كل أولئك الذين تتبع حيواتهم؟ وأن تشابههم في بعض الأوصاف والصفات مجرد مصادفة غريبة قد تحدث؟ إنه أمرٌ غامض على كل حال.

الأمر الأكثر غموضًا هو ذلك الملف الذي وجده في منزله والذي يقبع الآن في حجره، داخل الحقيبة السوداء التي اهترأت. شحنة المواد المشعة، لمن تتبع؟ ومن قبض ثمنها؟ هل دخلت البلاد فعلاً وتم دفنها في مكانٍ ما؟ أم لا تزال رابضةً بالميناء؟ أمسك النعيم بحقيبتته جيدًا في حجره وهو لا يزال يفكر في الأمر على نحوٍ عاصف. ماذا كان دور تاج الدين فيها؟ ما دور الآخرين؟ ومن هم؟ كل الأوراق التي فحصها لم يرد فيها غير اسم واحد معروف، أما بقية الأسماء فإنها مغمورة. من قبض الثمن إذن؟ وكيف له أن يكشف هذا الأمر إلى الرأي العام؟ هل يثير قضيةً في الصحافة كما اعتاد دائمًا أم يلجأ إلى المحاكم؟ أم الأسلم أن يسرب هذه الوثائق إلى بعض أصدقائه الموثوقين في الخارج ويتفرج على تفاعلاتها مثله مثل الآخرين؟ أيهما أسلم؟ أعجزه الجواب، وشعر بذهنه مرهقًا، يكاد لا يسعه في رسم طريقٍ واضحةٍ للتقدم فيها. قرر أن يفرغ من شأنه مع مريم أولاً ثم يفكر في الأمر بهدوء. هفوة صغيرة قد تورده المهالك. شدد قبضته على الحقيبة.

استيقظ من غفوته على صوت مكابح الحافلة وعلى حركة جسده وهو يندفع إلى الأمام حتى اصطدم بالمقعد الذي أمامه. انتظمت سرعة الحافلة في سيرٍ بطيءٍ متمهلٍ بعد ذلك. أشعل السائق الراديو، كان يذيع مقابلةً مع مسؤولٍ سوداني يتكلم عن تداعيات الأزمة التي اندلعت في دارفور وموقف الحكومة منها، وحول قرارٍ مرتقبٍ من مجلس الأمن الدولي قد يدين الحكومة أو يفرض عقوبات على بعض المسؤولين فيها.

- ماذا يجري؟ أنا منقطعٌ عن الأخبار منذ أيام.

قال النعيم، يسأل جاره الذي كان يطالع صحيفة، وقد بسطها كاملة أمام وجهه، فأجابه دون أن ينظر إليه.

- مثلما تسمع في الراديو، يمارسون ضغوطًا على الحكومة.

الوقت يقترب من منتصف النهار، ولم يبق على الخرطوم غير ساعة أو أقل. حاول النعيم أن يعود إلى غفوته لكنه لم يستطع. نظر ناحية الرجل مرةً أخرى فوجده منهمكًا في القراءة. استرق النظر إلى الصفحة التي يقرأ فيها فوجده يقرأ مقالًا طويلًا يحتل كامل الصفحة على اليسار كان عنوانه «ماذا تريد أمريكا من دارفور؟».

امتعض النعيم ثم أغمض عينيه وأسند رأسه إلى الخلف. شعر بعد قليل بالحافلة تبطيء من سيرها ثم تنحرف عن الطريق وتتوقف تمامًا. فتح عينيه ببطء ثم نظر من النافذة فأبصر محطة التفتيش الرئيسية بمنطقة سوبا، المدخل الرئيسي للخرطوم من جهة الجنوب. سمع صوت الأبواب الأوتوماتيكية وهي تُفتح مع توقف الحافلة، ثم رأى بعض رجال الأمن يصعدون. شدد قبضته على حقيبته. استعاذ في سره وهو ينظر إلى وجوههم المكفهرة بعينين نصف مغمضتين. توقف اثنان منهما طويلًا عند أحد الجالسين على بعد مقعدين إلى الأمام من مقعده، طلبا بطاقة هويته ثم طلبا منه أن ينزل من الحافلة ويتوجه إلى مكتبٍ قريبٍ يبعد بضعة أمتار عن موقف الحافلة، وكذلك فعلوا مع شابٍ آخر.

رجلان آخران، راحا يطوفان ويفحصان بقية الركاب. نظر أحدهما في وجه النعيم مليًا وكاد أن يسأله عن هويته لولا أن أحدهما تعرف إلى الرجل الجالس قرب النافذة، ثم بادله السلام بصوت عالٍ فانتبه رفاقه الآخرون وخفوا للسلام عليه بطريقةٍ فيها الكثير من التبجيل. كانوا ينادونه بـ «سعادتك» لكن دون أن ينطقوا باسمه.

شغلهم احتفاؤهم بالرجل عن التدقيق في هويات بقية الركاب القريبين منه، لكنهم عندما بلغوا مؤخرة الحافلة احتد نقاشهم مع فتاة لسببٍ لم يتبينه النعيم. علث أصواتهم جميعًا فجأة، واشتد صياحها في وجوههم. كان أحدهم خشن الصوت يشتمها بلؤم: شيوعية.. قليلة أدب! ثم أمرها أحدهم بالنزول فرفضت. جرها أحدهم من يدها ثم ساقها مثل شاةٍ عنيدة ناحية المكتب، وأمر رفاقه سائق الحافلة بالانطلاق.

النهر، الساعة ٠٨:٠٣ ص

القطعة المعدنية، جزيرتي الصغيرة التي كانت تعصمني من الماء، ذابت تحت وطأة جثتي المثقلة وغاصت في النهر. قواي تخور. لم أعد أحس بأي جزءٍ فيّ. الموج يتقاذفني في كل اتجاه، يلطمني على وجهي، يرفعني، يخفضني. لملمت الشمس أشعتها وبقيتُ هناك تتأملني بسخرية، بأسفٍ بالغ. الماء كثيف، والنهر شرس، والروح التي سكنتني طويلاً تصعد أخيراً إلى الحلق، وتخرج. أتأملها وهي تصعد إلى الأعلى، وأنا أنزل ببطء إلى الأسفل.

الماء يحملني على كفيه وينزلني برفق إلى المرقد الأخير، إلى جوار صخرة غريبة مسننة كراس هرّم. عيناى تشعان، تبصران رغم عتمة النهر، وتتعلقان بأخر الفقاقيع وهي تصعد إلى جوار الروح. الماء يتكثف من حولي، يضغط من كل اتجاه، صوته مكتوم مرعب. القاع موحش، ظلمات بعضها فوق بعض، والروح تشقها بهدوء مثل مشرط جراح، صاعدة نحو السطح، لعلّ مخلوقاً آخر ينتظرها. في بطنٍ ما، في مكانٍ ما، لتدبّ فيه.

اصطدمت بالقاع دون صوت. ترنحت الجثة السوداء الضخمة على الطين فثار كالدخان، ثم حفرت لنفسها مرقدًا وسكنت. لعله السكون الأخير.

قصد النعيم منزل شقيقته في حي الصحافة. وصل مع مغيب الشمس. كان قد قرر أن ينهي تلك المهزلة التي طال بها الأمد، ويضع حدًا لحياته الزائفة مع زوجته المسكينة التي تنتظره هناك في ود كامل مثلما تخيلها دائمًا. طال غيابه، لكنه سينتهي لا محالة. فكر في أن يقول لشقيقته كل ما أخفاه عنها خلال الأشهر الماضية ثم يأخذها معه إلى مريم، ويقولان لها كل شيء. هل ما يزال يخلط بين الوهم والحقيقة؟ أيهما حدث في اللحم وأيهما حدث في الواقع؟

كان عقله مشوشًا. وصل إلى أول الطريق المؤدي إلى منزل شقيقته. فوجئ بوجود سيارة رابضة تحت شجرة عند مدخل الشارع، ووجد نفسه أمامهم، وجهاً لوجه. هذا آخر ما أراد النعيم أن يحدث له في هذا اليوم. أحدهم وهو الكبير فيما يبدو. كان جالسًا داخل القمرة الأمامية لشاحنة صغيرة ويحمل في يده هاتفًا، بينما توزع آخرون حول السيارة وفوقها. ما أن اقترب منهم حتى أشار الكبير ليدفعوه نحو القمرة الخلفية المعتمدة. حُشر النعيم في المقعد الخلفي بين رجلين ضخمي البنية. اقتلعت الحقيبة من بين يديه اقتلاعًا، ثم رُبطت عيناه وقيدت يداه خلف ظهره مع تحرك الشاحنة. ورغم أنهم أربوه منذ اللحظة الأولى إلا أنه استطاع أن يحافظ على تركيزه ويتتبع بإحساسه خط السير الذي سلكته السيارة. خمن النعيم أنها سلكت الاتجاه المؤدي في نهايته إلى جسر أمدرمان القديم، لكنه سمع الكبير يقول لأحد ما على الهاتف إنهم يقتربون من جسر الخرطوم بحري. عبرت السيارة الجسر ثم سارت في خطٍ مستقيم لدقائق قليلة وانعطفت إلى اليسار. ثم انعطفت يمينًا ويسارًا فيمينًا، ثم ركضت في طريقٍ ترابي متعرج إلى أن انعطفت انعطافًا أخيرًا نحو اليسار وتوقفت تمامًا. تاهت جغرافيا المكان في ذهن النعيم عندئذ.

سمع صوت مزلاجٍ يُفتح، وصرييرًا عاليًا لبابٍ حديدي اندفعت بعده السيارة إلى الداخل. أحد الرجال دفع النعيم إلى خارج السيارة ثم اقتاده آخرون إلى داخل مبنى بخطوات

سريعة، فتحوا بابًا ثم دفعوه إلى داخل إحدى الغرف وهو لا يزال معصوب العينين ومقيد اليدين وراء ظهره.

سمع أصوات أقدام تقترب، وصوت الباب وهو يُدفع بعنف. مرت لحظة صمت قصيرة قبل أن يُدلق عليه ماء بارد، عبوة سطل كامل. شهق شهقة حادة ثم بدأت حفلة تعذيب عنيفة.

لم يستطع النعيم معرفة عددهم على وجه الدقة لكنه كان يميز بينهم بأساليب ضرباتهم. أحدهم يطره صفعًا وآخر ركلاً وضربًا في بطنه وظهره وخاصرتيه، وثالث يضربه بقضيب من حديد في كل مكان من جسده حتى لم يعد يحس بالألم. شعرَ بالدم يتدفق حارًا من أنفه وفمه وظهره وساقيه، وشعرَ برأسه يدور، وبأمعائه تصعد إلى حلقه، وبجسمه وهو يفقد اتزانه مع تتابع الضربات، وبوعيه يحضر ويغيب حتى سقط وغاب تمامًا عن الوعي.

لم يدرك كم مضى عليه من الوقت وهو كذلك، حتى أحس برعشة بردٍ قوية أفاق على إثرها. تكوّم على بعضه ثم راح في نوبةٍ أخرى من الغياب.

رأى نفسه يخوض راجلاً في المنطقة الضحلة على شط النيل، يذهب ويجيء وكأنه ينتظر شيئًا. وقف ينظر إلى بطن النهر الفائر وإلى دوامة عميقة في وسطه يصدر منها صوتٌ مثل فحيح النار. اقترب بخطواتٍ وثيدة حذرة، سمع ضحكةً لها صدئٌ حاد، تصدر من قلب الفوهة. ركّز بصره لكنه لم يرَ أحدًا. اقترب أكثر. رأى وجه تاج الدين المستشار كما رآه في تلك الليلة في قصره الأبيض، لكنه كان وجهًا ضخماً جدًا بحجم فتحة الفوهة. عيناه تلمعان مثل عيني قط. هسّ في وجهه ثم مدّ له يده يدعوه للنزول إلى الأسفل. تردد قليلاً، حاول أن يمتنع عن ذلك، لكن شيئًا ما كان يسحبه ناحية الفوهة.

في اللحظة التي كاد تاج الدين أن يمسك يده فيها، سمع صوت مريم تنادي عليه من الشط. التفث. رآها وسط دفقة هائلة من النور أصابت عينيه بالإبهار. كانت في هيئة ملاكٍ ضخم له أجنحة كبيرة من النور. كانت تحمل بين يديها لفافة بيضاء وتمدها إلى الأمام: «لقد

أنجبتُ ولدًا يشبهك يا مصطفى واسميته نور الدين. أنظر إليه. أنظر إلى نور الدين يا مصطفى». وسمع صدى صوتها:

مصطفى.. مصطفى... طفى..

وضع يديه على أذنيه. سمع قهقهة تاج الدين من خلفه، فراح يصرخ..

- أنا النعيم يا مريم.. اسمي النعيم.. النعيم..

لم يكن صوته يغادر حلقه وهو يرى مريم تبتعد عن الشط. حاول أن يلحق بها لكن أطرافه جمدت. شعر بقدميه تغوصان في وحل النهر شيئًا فشيئًا، وصوت تاج الدين يقهقهه، ثم يهمس في أذنه بصوتٍ كالفحيح..

«حياة أخرى.. عبورٌ جديد.. المجد للروح!».

أفاق على وقع ركلةٍ في خاصرته. تأوه بصوتٍ موجوع وهو ينقلب على ظهره. سمع همهمة رجال، ثم سقطت على جبهته ضربة قوية من قضيب حديدي ثقيل. شعر لوهلة بدمٍ دافئ يغمر جسده، ثم راح في عتمةٍ شاملة.

النهر... :

في الغسق الأخير من الليل، توقفت شاحنة صغيرة قرب الشط. سكنَ أزيز محركها وانطفأت مصابيحها وهمدت. نزل منها أشباحٌ ثلاثة، تحركوا قليلًا في العتمة، كما لو كانوا يبحثون عن شيء. يخافون من شيء.

عادوا متحفزين، ثم فتحوا ظهر الشاحنة وأنزلوا منها لفافةً ضخمة مدماة في حجم رجل. حملوها ثلاثتهم على الأكتاف ثم خاضوا بها في الماء حتى بلغ صدورهم. رفعوها إلى الأعلى، طوحوا بها ثم قذفوها في الماء.

أحدثت دويًا عظيمًا وهي تشق سكون الليل. تشق سطح النهر. تصبغه بالأحمر القاني.
خرجوا مرعوبين ناحية الشاحنة الرابضة على الشط. تلفتوا حولهم قبل أن يصعدوا إليها
ليهربوا.

نزلت اللغافة الضخمة بهدوء إلى عمق النهر. استقرت هناك في القاع إلى جوار صخرة
غريبة، مسننة كرأس هرَم.

على الجانب الآخر من الشط. ثمة شبح، أسود ضخم. خرج من سقيفة بين الأشجار. يمشي
على ضوء كشاف يدوي. يتحرك مثل دُبٍ متحفّز على حافة النهر. سمع صوت محرك
الشاحنة. توقف. سلط ضوء الكشاف عليها برهة من الوقت ثم أطفأه.

أحد الرجال الثلاثة التفت ناحية مصدر الضوء. أضاء كشافًا في يده. لم يميز تمامًا ما رآه.
ثمة شبح أسود ضخم، عيناه تلمعان في البعيد، وسط العتمة، مثل عيني قط.

تمت بحمد الله

1. [الغلاف](#)
2. [الطَّائِفُ وَالْأَسْوَدُ](#)
3. [الإهداء](#)
4. [١](#)
5. [٢](#)
6. [٣](#)
7. [٤](#)
8. [٥](#)
9. [٦](#)
10. [٧](#)
11. [٨](#)
12. [٩](#)
13. [١٠](#)
14. [١١](#)
15. [١٢](#)
16. [١٣](#)
17. [١٤](#)
18. [١٥](#)
19. [١٦](#)
20. [١٧](#)
21. [١٨](#)
22. [١٩](#)
23. [٢٠](#)